

مصطفى محمود

الخروج من التابوت



١٩٨٥

كانت العرب تخفض شوارع ضيقة مليئة بالحفر وبين حين وآخر يتصاعد الرشاش فيغرق النوافذ وينزل السائق لينتزع العرب من حفرة عميقة مليئة بماء المطر ، ثم يعود ليكركر في طريقه ونحن نتخضخض في أماكتنا والعرق يسيل على جباهنا من شدة الرطوبة .. وكان الدليل « كاكوما » إلى جوارى يصف المناظر التي نمر بها ويشير بيده قائلاً :

هذه دلهي عاصمة الهند القديمة شيدت سنة ١٦٣٨ .. وهذه العمار التي تراها يعود تاريخها لأكثر من ثلاثمائة عام وهذا النهر الذي يتهادى أمامنا هو نهر « جمنا » أحد أفرع نهر الكنجج ..

وكان على الشاطيء أمامي مئات الهنود الفقراء وقد افترشوا الأرض ونصبوا خياماً مهلهلة من الخرق القديمة وكان الذباب والقذارة في كل مكان حيثما أرسلت بصرى ..

وساءلت نفسي .. من أين أتى طاغور بكل الجمال والنقاء والشاعرية التي قطرها في قصائده ودواوينه كالرحيق المسكر ..

كانت العرب تخفض شوارع ضيقة مليئة بالحفر وبين حين
وآخر يتصاعد الرشاش فيغرق النوافذ وينزل السائق لينتزع العرب
من حفرة عميقة مليئة بماء المطر ، ثم يعود ليكركر في طريقه ونحن
نتخضخض في أماكننا والعرق يسيل على جباهنا من شدة الرطوبة ..
وكان الدليل « كاكوما » إلى جوارى يصف المناظر التي نمر بها
ويشير بيده قائلاً :

هذه دلهي عاصمة الهند القديمة شيدت سنة ١٦٣٨ .. وهذه العمار
التي تراها يعود تاريخها لأكثر من ثلاثمائة عام وهذا النهر الذي
يتهادى أمامنا هو نهر « جمنا » أحد أفرع نهر الكنجج ..

وكان على الشاطئ أمامي مئات الهنود الفقراء وقد افترشوا
الأرض ونصبوا خياماً مهلهلة من الخرق القديمة وكان الذباب والقذارة
في كل مكان حيثما أرسلت بصرى ..

وساءلت نفسي .. من أين أتى طاغور بكل الجمال والنقاء
والشاعرية التي قطرها في قصائده ودواوينه كالرحيق المسكر ..

كانت الصورة الأولى التي طالعني عن الهند صورة حزينه تعيسة
ولم تكن تبدو لي بالمكان المختار الذي يلهم الشاعر بمثل هذه الأبيات
الساوية ..

وكان اليوم هو اليوم الأول في الاحتفالات المثوية بذكرى
طاغور ..

والظاهر أني سرحت طويلا في تساؤلاتي لأن صوت الدليل
«كاكوما» أيقظني وهو يصف قوساً كبيراً أثرياً ويشير بيده إلى
نقوش مكتوبة بلغة سانسكريتية ..

ولم أكن أسمعه وإنما كنت أصغى بكل حواسي إلى عويل ناي
يعزف عن قرب .

وأيقظ في صوت الناي تلك الوشائج الغامضة التي تضم كل
الشرقيين .. وشعرت كأنما أنا أتنقل في وطني .. وكأنما أستمع إلى
أحزاني .. وكأنما هذه الوجوه الدامعة وهذه الأيدي المعروقة التي
تمتد لتشحن هي الأيدي التي أعرفها في الحسين والسيدة وأزقة القاهرة
القديمة ..

لم أفق إلا على صوت كاكوما وهو يصيح .

— لقد وصلنا .. هذه هي القاعة ..

ونظرت إلى الأثر الجليل الذي يرتفع أمامي .

هذه إذن هي القلعة الحمراء ..

أخيراً .. أنا في الهند ..

وكنت أتأمل البناء الأسطوري الشامخ وأشعر أني عدت ألف
سنة إلى الوراء وعلى عتبات البناء كان هناك زحام .. وكانت هناك
حلقة من الهنود حول فقير هندي يجلس في الوسط على ملاءة بيضاء
وقد عقد يديه على صدره ومضى يتمتم وقد أغمض عينيه ..

ونظرت إلى دليلي أسأله عما يجري ولكنني فوجئت به يشدني في
اشمزاز ..

— هذه شعودة .. لقد جاء الوقت لتتخلص من هذه الشعودة ..

ولكن الفقير الهندي بدأ يرتفع عن الأرض .. بدأ يطير في الهواء
دون أن تمسك به يد وتجمد الدم في عروقي وأسرعت إلى الحلقة
في فضول مسحور ..

مددت يدي تحت الرجل وقد خيل إلى أن هناك أعمدة خفية
تحمله .. ولكن لم يكن هناك شيء ..

كان الرجل يفترش الملاءة في الهواء وينام عليها في هدوء وكأنها
بساط سليمان ، وكاكوما ما زال يشدني من يدي ليدخل في القلعة
هاتفاً ..

— هذه شعودة .. شعودة لا تستحق منك أي اهتمام ..

— ولكن هذا الفقير عنده من العلم ما يفوق علم كل الذين يبنون
الطائرات والنفاثات ..

— سيدى .. إننا شعب فقير جداً .. وقد رأيت بنفسك القذى
والأقذار والأدران والأوبئة والأمراض فى كل مكان .. وهذا
الإغراق فى الغيبيات والغوامض هو الذى قعد بنا طوال هذه القرون ..
— ولكن هذه معجزة .

— إذا كان الرجل يأتى بالمعجزات فلماذا لم ينقذنا وينقذ نفسه
من المجاعات .. إن أول من يموت فى المجاعات هم هؤلاء الفقراء
المشعوذين .. سيدى إنها مأساة .. أنت لا تعرف الهند .. إن المعجزة
الحقيقية هى ما نصنعه الآن .. نحن الآن نصنع الصلب والآلات
الحديثة ونعلم أولادنا فى المدارس .. ماذا فعل صاحبك بعد أن أتى
بمعجزته .. إنه يشحذ .. انظر إنه يشحذ ..

وكان الفقير الهندى قد عقد ذراعيه على صدره وراح يتلقى
الروبيات التى يلقى بها المتفرجون فى حجره دون أن ينطق بحرف ..
وشدنى كاكوما من يدى وصعد بنى على درج القلعة .. وراح
يصف لى النقوش على السقف والجدران ويتكلم كلاماً كثيراً عن
تاريخ القلعة وعن الذى بناها وعن العصور التى تعاقبت عليها ..
ولكنى لم أكن أسمع .. كنت ما زلت أفكر فى الرجل الذى طار ..

— ولكنى لا أرى فى الأمر شعوضة .. إن للرجل قدرة خارقة ..
هذه معجزة واضحة لكل ذى عينين ..

— أين المعجزة .. أين القدرة الخارقة .. إذا كان للرجل تلك
القدرة الخارقة فلماذا لا يعمل بها لياً كل بدلا من حياة الجوع والمرض
والفقر التى يعيشها ..

— ولكنه يطير .. ألا ترى ... إنه يطير فى الهواء ..

— إن الطائرة تطير أسرع منه .. إننا فى عصر الصواريخ والنفاثات
والأقمار الصناعية .. إنه مواصلة متخلفة جداً ..

— ولكنه يأتى بشيء خارق يخالف جميع القوانين ..

وكان الفقير الهندى قد بدأ يهبط بهدوء إلى الأرض وكأنه يهبط
بمظلة .. حتى استقرت ملاءته على الأرض .. وكان ما يزال على حاله
مغمض العينين يتمتم .. بينما راح الدليل يبرطم فى ضيق واضح ..

— ألا ترى أنه لو عمل وفقاً للقوانين لوصل إلى نتيجة أحسن
وأضمن .. إن إخوانه الهندود الذين دخلوا كليات الهندسة والطيران
يخترعون أشياء أحسن .. إننا الآن فى عصر العلم .. ولا شيء يؤخر
الهند سوى هؤلاء المشعوذين .. إنه لأمر مخجل .. أمر مشين .. العالم
يتقدم مسرعاً ليغزو الفضاء ونحن ما زلنا فى عصر الحواة نأكل
الثعابين ونمشى على المسامير ونخطو على الهواء ..

جلس على ملاءة وعقد يديه على صدره وأغمض عينيه وطار .. هكذا ببساطة .. بدون مروحة وبدون موتور وبدون وقود .. بمجرد الإرادة .. بقوة العقل الخالص ..

أى إرادة خارقة نافذة وراء هاتين العينين المغمضتين ..

كان منطق الدليل فى غضبه وثورته يبدو لى شاحباً .. ولم تكن كل هذه الثورة تعنى لى شيئاً أكثر من غضبة قومية فى غير محلها .. إنه يتكلم عن العلم .. أى علم ! ؟ .. وأمامنا علم فوق كل العلوم . وماذا يضير الفقير فى أنه يشحذ . وما ذنبه فى أن الحظوظ والأرزاق فى هذه الدنيا موزعة .. هكذا ..

كنت أرى الرجل وقد عقد يديه على صدره وطار .. وطار .. وأقول لنفسى .. كيف .. وتسرى فى بدنى الرعدة ..

هل يمكن .. أن يخرق القانون الطبيعى بهذه البساطة .. أم أنه لا قانون هناك ..

أم أن الإرادة هى القانون الأعلى فوق جميع القوانين ..

ولكنى أريد الطيران فلا أستطيع الطيران ، ولا أستطيع أن أرفع نفسى إلا قفزاً بقوة العضلات ثم أعود فأقع على الأرض

قليل الحيلة مهيض الساق .. بينما الرجل يتمدد فى الهواء مغمض العينين وكأنه يسبح على بحر من الزئبق ..

إنه يطير فى وضوح النهار ..

عرياناً إلا من خرقة لاتسكاد تستره ، ممدداً على الهواء كأنه ممدد على فراشه .

لا حيلة هناك ولا شعوذة ..

كيف ! ؟ ..

كيف ! ؟ ..

أريد أحداً أسأله وأكلمه وأناقشه وأفضى له بحيرتى ..

الدليل الذى يرافقتى يكلمنى عن القلعة وعن ماضى الهند المذهل .. وكلما عدت إلى الموضوع أشاح بيديه ..

مالى أنا وهذه الحجارة إذا كانت من رخام أو من مرمر ..

هذه القلعة رفعها إنسان بالجهد الجهيد والعناء والعرق ..

ولكن هناك إنسان رفع نفسه .. تمدد على الأرض وطار .. دون أن يبذل جهداً .. ودون أن تنقبض له عضلة .. استرخى فى اطمئنان كأنه لا يفعل شيئاً ..

ثم فعل مستحيلاً ..

طول الوقت وأنا أصعد درجات القلعة ، وأنا أدور في شرفاتها .

وأنا أعود في طريق عبر الشوارع الضيقة المليئة بالحفر ..

وأنا أدخل نيودلهي ..

وأنا أصل إلى فندق أشوكا حيث أنزل مع الوفد الذي أرافقه ..

وأنا أتناول عشاءى ..

وأنا أضع رأسى على فراشى لأنام ..

وأنا مطارد برؤيا لاتفارقنى ...

رؤيا رجل تمدد على الأرض وأنغمض عينيه في استرخاء

وطار .. هل كنت أحلم ..

لا .. أنا عائد لتوى من رحلة نهار شاقة .. أنا يقظان .. حواسى

كلها حاضرة ..

لم أستطع النوم ..

قمت من فراشى وفتحت النافذة ..

وقفت أتنسم هواء نوفمبر .. الرقيق .. فكرت طويلاً ..

— ١٠ —

كل ما قرأت من علوم لم يسعفنى ..

عملى كمفتش آثار ودارس للغة المصرية القديمة ..

كنت قد بدأت أكتب الأوراق الأولى في رسالة دكتوراه

في اللغة الهيروغليفية ..

كل هذا لاشيء ..

أنا لا أفهم شيئاً ..

لقد عشت طول حياتى جاهلاً ..

ارتديت ثيابى ونزلت بهو الفندق ..

كانت الساعة متأخرة من الليل وكان البهو خالياً .. إلا من شبح

واحد يجلس في ركن يشرب ..

إنه صديقنا أمرى خان المرافق لوفدنا (يبدو أن اسمه محرف

من عمرو خان) .. وشعرت بالراحة وأنا أتطلع إلى وجهه الرقيق

المتقشف ..

أخيراً وجدت من يستمع إلى ويفهمنى ..

وكان الرجل ينظر إلى بابتسامة تتسع في ترحيب كلما اقتربت

منه ..

مد يديه مرحباً وقال :

— ١١ —

— أرجو أن تكون مستريحاً في الفندق .. يبدو أنك لم تستطع النوم .. هل الجو يضايقك .. إن شهر نوفمبر ألطف الشهور جواً عندنا ..

— إنه ليس شيئاً خاصاً بالنوم أو الحر أو الفندق .. إلى .. إلى .. إلى لا أعرف ماذا أقول .. لقد شاهدت شيئاً حيرني .. لقد كنت اليوم في القلعة الحمراء ..

ورأيت يبتسم ويردف مقاطعاً في أدب ..

— إنه الفقير « براهيم و اجيسوارا » .. أنا أعرف ..

— إنك لن تقول إنه مشعوذ كما قال الدليل .. لقد رأيته بعيني هاتين ..

— لا ، إنه ليس مشعوذاً .. إن بعض الشباب العصري عندنا أصبح يكره هؤلاء الفقراء لأنهم ينشرون حولهم جواً من الإيمان بالروحية .. وهم يشكلون فيما بينهم جمعيات لمحاربتهم .. وأنت تعرف أن مهاتما غاندى قتل بسيد واحد من هؤلاء المتعصبين .. ولا بد أن دليلك كان من هؤلاء الشبان .. إنها القصة المعادة .. قصة الصراع بين الجديد والقديم ..

— ولكن هل يمكن .. هل يمكن أن يفعلها .. أن يتمدد على الأرض ويطير .. لقد رأيته بعيني .. إنها لا يمكن أن تكون خدعة .. — إنها ليست خدعة أنا أعرف براهيم و اجيسوارا .. وهو صديقي .. لقد رأيته يدفن نفسه حياً ويعيش تحت التراب أياماً ..

ورأيت يتحكم في نبضات قلبه فيخفض سرعتها إلى ثلاثين نبضة في الدقيقة ويرتفع بها إلى مائة بمجرد الإدارة .. ورأيت يتحكم في تمدد شرايينه وانقباضها فيمد لك يده فإذا هي حمراء محتقنة ويمد لك الأخرى فإذا هي صفراء غاض منها الدم .. إنه رجل عجيب .. عنده هبات غير طبيعية .. وهذا كل ما يمكن قوله .. — ولكن كيف .. كيف ؟

— هناك أشياء لا نعرفها ويبدو أن عقولنا تملك قوى ذاتية تستطيع أن تؤثر بها في الأشياء من غير طريق الجسد والحواس .. لقد اكتشفنا قوة البخار والكهرباء والذرة ولكني أعتقد أننا يوماً ما سوف نضيف مصدراً آخر خطيراً للقوة .. هي قوة العقل نفسه .. — تقصد الروح ..

— لا أدري .. سمعنا الروح أو العقل أو النفس .. إنها كلمات تؤدي إلى الكثير من الخلط ..

— قل لي بصراحة هل تعتقد ببقاء الإنسان بعد موته ..

— إذا كانت الشمعة حينما تنطفئ يظل نورها يرتحل ملايين السنين في الفضاء حيث يمكن أن يلتقط ويشاهد .. وهذا شأن شمعة .. فما بالك بإنسان تنطفئ حياته .. كيف تستبعد أن يكون له بقاء بعد موته .. أنظر إلى السماء ترى بين النجوم اللوامع نجوماً تتألق ، يقول لك الفلكيون أن نورها انطفأ من ملايين السنين .. وهذا شأن المادة باقية أبداً .. تتحول وتتحول ولكنها لا تنفنى فما بالك بالإنسان وهو أرقى مادة في الوجود ..

ثم تعال لنفكر معاً .. ما المادة التي يطنطن بها الماديون .. إنها لم تعد في ضوء العلم المادة الصلبة التي نعرفها وإنما تبخرت إلى خلاء منشورة فيه ذرات .. والذرات قال لنا العلم أيضاً إنها خلاء منشورة فيه ألكترولونات تدور حول أنوية من البروتونات .. وما الألكترولونات والبروتونات في النهاية إلا شحنات كهربائية .. أى طاقة .. مجرد طاقة .. إذن فالمادة طاقة .. نشاط .. مجرد نشاط موجى .. مجرد حادثة تجرى في الفضاء المطلق ..

وتوقف أمرى خان ليرتشف رشفة من كأسه ، ثم صفق للجرسون ليطلب لى كأساً .. ولكنى طلبت كوباً من عصير الليمون ..

كنت أريد أن أحتفظ بعقلي يقظاً متفتحاً لكل كلمة يقولها .. وأردف أمرى خان وهو يصب لنفسه كأساً ثانية ..

— إذا كنت قرأت النسبية فأنت تعرف أن أينشتين قال إن كل جسم له مجال حوله وأن هناك بعداً رابعاً غير مرئى للمادة هو الزمن ، نعرفه بالحدس والتخمين ، وتقصر حواسنا المباشرة عن إدراكه .. فلماذا تعجب إذا قال لك علماء الروح إن الجسم الإنسانى له مجال مغناطيسى حوله وأن الروح تعيش في العالم الرباعى الأبعاد وتدركه .. وأنها ذات طبيعة موجية تتمكن من اختراق الحجب .. وأنها حادثة من الحوادث التي تجرى فينا وحولنا في الفضاء المطلق ..

إننا نرى الأشعة البنفسجية ولا نرى الأشعة فوق البنفسجية ، لأن أمواجها أقصر وذبذبتها أسرع .. وعلم الطبيعة يقول لنا أنه كلما كانت الذبذبة أسرع والموجة أقصر فإنها تكون أكثر نفاذاً واختراقاً للمواد وأكثر خفاء على الحواس .. وما الأرواح إلا هذه المخلوقات الموجية ذات الذبذبة العالية ، فهي تخرقنا وهي فينا وهي حولنا ونحن لا نسمعها ولا نراها ..

وليس هناك ما يدعوننا لأن نتصور أنه لا توجد بين أطوال الأمواج والذبذبات إلا الأمواج والذبذبات التي أدركناها بمقاييسنا .. والطبيعى أن نتصور أن هناك مراتب ودرجات من الذبذبة لا نهاية لها ..

والنسبية تقول لنا أننا لو سرنا بسرعة الضوء لرأينا شعاع الضوء الذى يسير بجانبنا له ملمس ومظهر المادة الصلبة وكأنه قضيب من حديد ..

وربما لو سرنا بهذه السرعة لرأينا الأرواح أجساماً متشاقلة ملموسة كأجسامنا ..

إن ما يظهر لنا من أمر هذا الكون يتوقف على الموقف النسبى الذى نلاحظ منه الأشياء والحقيقة يمكن أن تتخذ ألف شكل لا عيننا إذا اتخذنا ألف موقف نلاحظها منه .. نقطة الماء إذا نظرنا إليها بالعين غير نقطة الماء إذا نظرنا إليها بالميكروسكوب غير نقطة الماء إذا نظرنا إلى بخارها بالإسبكتروسكوب ..



إن شهادة الحواس سوف تظل تنقل لنا مراتب مختلفة من الحقيقة كلها نسبية بحسب الظروف التي نشاهدها فيها ..

وسكت أمرى خان هذه المرة طويلاً وراح يهز الكأس بما فيه من قطع الثلج العائمة ..

وكنت أنا طول الوقت مشغولاً بكل كلمة قالها ..

ثم قطع الصمت قائلاً :

— ألا توافقني أن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها في هذه الدنيا ..

— أنت محق ..

— أنت كعالم آثار مصرى عشت في القرون البائدة وعاشت أفواماً ونظماً وعصوراً عفا عليها التاريخ ... ألم تشعر مرة وأنت تقرأ مخطوطاً من البردى أنك تلمس حقيقة إنسانية ما زالت تتنفس حولك .. ألم يعتقد قدماء المصريين في البعث بعد الموت ..

— نعم لقد اعتقدوا بالإله الواحد وبالروح وبالبعث ..

— دون أن ينزل عليهم دين ..

— نعم ..

— وكان هذا حال أكثر الأمم بدائية وأكثر الأمم حضارة ..

— نعم ..

— ألا يدل هذا على أن وجود الروح حقيقة بديهية لا تحتاج إلى إعمال عقل وأنها أمر مفروغ منه وبداهة من بداهات الفطرة .. ألا تبدو هذه الحقيقة غريبة ..

ولقد كانت تبدو هذه الحقيقة غريبة بالفعل ..

وسقط بيننا حاجز الصمت من جديد ..

ولكننا كنا أشد ما نكون تعاطفاً واتصالاً في صمتنا وكأنا نتخاطب كلانا بلغة مهموسة .. ومر وقت لم تكن تسمع فيه إلا خشخشة النسيم في الحديقة وطققة الثلج في كأس أمرى خان .. وكانت هناك فكرة تشغلني وتلح على طول الوقت ..

قلت لصديقي ..

— كلامك عن الروح وإن دل على أنك تؤمن بوجودها إلا أنه يدل أيضاً .. وهذا عجيب .. على أنك لا تؤمن بالروحانية على الإطلاق ..

— لا أفهم ماذا تعنى ..

— كلامك عن الروح بأنها أمواج على درجة عالية من الذبذبة معناه أنك تعتقد أن الروح مادة ولكنها مادة أكثر لطفاً وشفافية من مادتنا .. فأنت إذن لست من أنصار الروحانية .. وما تقول به هولون من المادية .. لنسمها المادية الجديدة ..

وابتسم أمرى خان حتى بدت أسنانه البيضاء ثم ضحك قائلاً :

— ألم أقل لك أن المعركة تدور وتدور ثم تنتهى إلى مجرد خلافات إسمية .. لن أخيب أملك .. ولن أدور بك في جدل بيزنطى .. اعتبرنى صاحب نظرية في المادية الجديدة .. مادية رحبت حتى اتسعت لمعانى الروح والجسد .. سيدى فى صحتك ..

ورفع كأسه مردفاً :

— لن نتعارك على مجرد خلافات إسمية ..

وشعرت فى تلك اللحظة أنه محادث جذاب حقاً وأنى لم أتكبد مشقة السفر إلى الهند عبثاً .. فهنا صديق نادر سوف أستمتع بمرافقته طوال الرحلة ..

وصارحته بإعجابى ، فاحمر وجهه تواضعاً ولم يرد ..

قلت له :

— إن أملك الوحيد الذى أرجو أن تحققه لى فى بلدك أن تعرفنى على صديقك الفقير « براهيم و اجيسوارا » ..

— هذا أمل بسيط .. اعتبر طلبك مجاباً .. غداً بعد الاحتفالات للتمنى بالبراهما و اجيسوارا ..

— لا شأن لى بالاحتفالات .. لقد جئت من يادى طالباً الجلوس
بين يدى البراهما .. إنه كل شغلى وشاغلى من اليوم ..
ورأيته يبتسم ابتسامته الواسعة ويقوم محيياً ..

— لك ما تشاء .. أرجو أن تنام جيداً الليلة لتتحمل أعصابك
ما سوف تراه غداً فى حضرة البراهما .. ولقاؤنا غداً فى الصباح
الباكر ..

وضم كفيه ورفعهما إلى أعلى جبهته علامة وداع ..
وافترقنا ..

فى طريقنا إلى براهما واجيسوارا كان أمرى خان يحدثنى عن
تاريخ حياة البراهما ويروى لى طفولته المترفة والقصر الكبير الذى
كان يعيش فيه فى كلكتا وكيف تلقى تعليمه فى انجلترا جنباً إلى جنب
مع أولاد الملوك والأمراء .. وكيف عاد إلى الهند ليخلع بذلته الأنيقة
ويهجر بيته وزوجته ويقيم فى الجبال والغابات خافياً عارياً لا تستر
جسده إلا خرقة .

— إن براهما واجيسوارا ليس شحاذاً جاهلاً كما صورلك ذلك
إنه خريج أوكسفورد ويتحدث الإنجليزية بطلاقة ويحيط بالفلسفة
الغربية وآدابها إحاطة متخصصة وهو عضو فى جمعية مارلبورن الروحية
بلندن وله رسالة قيمة فى الرياضيات العليا ..

— ولكنها نهاية عجيبة تلك التى وصل إليها البراهما بعد طول
دراسته وتفلسفه ..

— إنه الآن يعيش فى كهف بالجبل وحيداً يصلى طول النهار
وفى وقت الظهيرة ينزل إلى الساحة أمام القلعة الحمراء ليطلع
الناس على الحقيقة ..

— وای حمیه ! ؟ ..

وأمام فوهة كهف تدلت عليه تعاريش الأشجار توقف صديق
شيراً :

— هنا يسكن براهيم واجيسوارا ..

وتطارت العصافير تزقزق ونحن نريج التعاريش الكثيفة ونتحسن
طريقنا إلى الداخل .

وعلى بعد خطوات أمامنا كان يجلس البراهما ، عيناه مغمضتان
ويدهاه معقودتان على صدره وشفتهان تتمتان بصلاة خافتة .

وفتح عينيه ببطء حينما اقتربنا منه .

وضم أمرى خان كفيه ورفعهما إلى أعلى في تحية سلام وقدمى
هامساً :

صديقى الدكتور توفيق ، من القاهرة ..

ورفع البراهما كفيه مضمومتين إلى أعلى يحينى هامساً بالانجليزية
سليمة :

... مرحباً بك فى بلادنا ..

وغاب البراهما لحظة فى داخل كهفه ثم عاد يحمل على يديه
ورقة خضراء من أوراق الموز عليها بندق ولوز وحمص قدمها إلى ..

— تفضل .. أرجو أن تكون بلادنا قد أعجبتك ..

— لقد دفع ثمناً كبيراً فى سبيل الوصول إلى هذه الحقيقة ..
حتى الاحترام لم يحصل عليه .. فيها هو أحد مواطنيه ينظر إليه شذراً
كما ينظر إلى حشرة عالقة بسترته ..

— يبدو لى أنه لم يعد يهتم بهذا الاحترام التقليدى وأنه يتطلع إلى
مثل أخرى غير المثل التى نتطلع إليها فى حياتنا العادية .

— إن كل ما يطلبه من الدنيا هو خبزه كفافه .. وأن يوصل كلمته
إلى الدنيا ويمضى ..

وأثناء صعودنا الجبل كان يمر بنا أفراد طائفة الشيخ بشعورهم
المرسلة وعربات الركشا يجرها فقراء الهنود .. والثيران والجواميس
فى أعناقها الأجراس .. والأطفال عرايا يستحمون فى الحفر التى
ملأها المطر ..

وكان هواء الجبل يرق ويشف كلما صعدنا وتقل مافيه من
رطوبة ... ويعبق بروائح الأزهار .

وكانت الطيور الملونة ترفرف فوق رؤوسنا من كل جنس ..
والقروود تقفز طليقة على الأشجار وتتخاطف ثمار الجوز ..

وكانت فى الطبيعة بكاراة وعذرية تهز القلب ..

— إن أروع ما في الهند هو براهما واجيسوارا ..

— عفواً لعلك تقصد أتعس ما في الهند .. لقد بدأت من أسفل السلم .. وهذا طبيعي على أى حال ..

— بل بدأت من أعلى السلم ..

— هذا إطرأ لا أفهم له مبرراً ..

وكان البندق مملحاً وعليه شطة وبدأت أسعل وأعاني من عطش شديد ، وقال البراهما وهو يقودني من يدي :

— هنا بئر قريية .. مياهها عذبة باردة شافية .. دعني أساعدك ..

وغاب في الداخل لحظة وعاد يحمل جرة ليملاها .. وخرجنا نحن الثلاثة إلى ناحية البئر ..

وكانت بئراً عميقة تنحدر إليها المياه في جداول رفيعة من السيول التي تهبط على قمة الجبل .. وكانت للبئر سلام تهبط إلى القاع .. درجاتها منحوتة في الصخر ..

وكانت البئر مليئة لحافتها من السيول التي نزلت منذ أيام .. وكانت مياهها شفافة تكشف عن قاع بعيد غائر مرصع بالحصى ..

ورأيت البراهما يحمل الجرة وينزل درجة درجة في هدوء وهو يقول إن مياه القاع هي أطهر ما في البئر لأنها بعيدة عن الحشرات

والهوام ولا يردّها الضباع وأنه سيملاً إلى الجرة من ماء القاع .. وكان طول الوقت ينزل في هدوء درجة درجة حتى غمر الماء صدره ثم عنقه ثم رأسه ثم غطاه تماماً وهو ما زال ينزل في هدوء وكأنه ينزل في بدروم نادى ليلى .

هل جن الرجل ؟

وأمسكت بصديقي أهتف به .. البراهما غرق .. البراهما أغرق نفسه في البئر ..

وكان صديقي ينظر إلى في هدوء ويبتسم .. وأنا أصرخ :

— كيف تقف ساكناً هكذا لا تفعل شيئاً والرجل يغرق ..

وأمرى خان يجيب في هدوء وهو يشير إلى البئر ..

— انظر إنه لا يغرق .. إنه ما زال يهبط في هدوء تحت الماء نازلاً إلى القاع .. إنه يعرف طريقه جيداً كأنه في بيته .. ونظرت إلى البئر ..

كان البراهما ما يزال ينزل درجة درجة في هدوء .. حتى بلغ القاع فجلس القرفصاء في هدوء وأغمض عينيه وأغرق في الصلاة ونسى كل شيء .. ثم سكنت حركته تماماً وصرخت :

— البراهما مات .. غرق .. اختنق .. لماذا تحملته هكذا ولا تفعل شيئاً ..

وأجاب أمرى خان فى هدوء ، وهو يحملق فى البئر وينظر إلى
ساعته :

— البراهما يصلى بقلبه .. هذه عادته دائماً .. يصلى فى كل مكان
تحت الماء ، وفوق الأرض ، وفوق الهواء ..

— ولكن هذا مستحيل .. إنه رجل أخرق .. إنه يختنق هجدا
فى ثوان وهو تحت الماء حيث لا يوجد أكسيجين يتنفسه .. إن الجسم
لا يستطيع أن يعيش بدون أكسيجين إلا ثوان معدودة .. هذه قوانين
بيولوجية ..

— هذه قوانينك وقوانينى نحن الذين ما زلنا فى أولى ابتدائى فى
مدرسة الأسرار .. انظر إلى ساعتك وستعلم كم سيقى البراهما تحت
الماء بدون أكسيجين ..

ونظرت إلى ساعتى فى رعب .. كانت قد مرت دقيقتان منذ
هبوطه تحت الماء وكان عقرب الدقائق يمشى ببطء ويزحف زحفاً
على المينا البيضاء .. وكنت أرتجف من الخوف وقد تثلجت أطرافى ..
خمس دقائق .. عشر دقائق .. وهمس أمرى خان ..

— نستطيع أن نجلس فلسنا فى عجلة من أمرنا .. ومثل هذه
الصلوات تطول عادة ..

وشدنى من ذراعى وأجلسنى بجواره على حافة البئر وهمس عاتباً
حينما رآنى أرتجف :

— ألم أقل لك يجب أن تنام جيداً حتى تكون فى حالة عصبية
مناسبة ..

— إن ما أراه هو الجنون بعينه ..

... إن ما تراه هى معجزة العقل وليست معجزة الجنون .. إنك
فى قدرة العقل الفائقة على إيقاف كل عمليات الحياة والسيطرة عليها
بإطائها بالإرادة ..

— ولكن كيف يتنفس .. لقد مضت خمس عشرة دقيقة ..
إنه لا يمكن أن يكون حياً .. هذه جريمة انتحار .. لابد من عمل
شئ ..

— فكر قليلاً بدلاً من هذا القلق الذى لا جدوى منه .. حينما
تبطل جميع عمليات الحياة البيولوجية فإنها لا تحتاج من الأكسيجين
إلا قدرأ يسيراً تافهاً .. أقل مما تحتاجه سمكة .. وهو يحصل الآن
على هذه الكمية من الأكسيجين الذائب فى الماء ويمتصها عن طريق
جلده .. مثل جنين فى بطن أمه .

— هذه جريمة انتحار .. أنت تهذى ..

ونظرت إلى الساعة واستبدت فى الغزع ..

ولم يجد أمرى خان بداً من إمساكى وتقييد حركتى حتى
لا أرتكب حماقة على حد قوله ..

ومضى الوقت رهيباً ..



وهمست وأنا مقيد بذراعى صديقى القويتين .

— إذا مات سوف أسلمك للبوليس .. أنت الذى قتلته ..
أنت مسئول ..

وسمعت صديقى يضحك وينظر فى ساعته هاتفاً :

— ٤٥ دقيقة .. انظر ..

ونظرت إلى البئر ورأيت البراهما يتحرك ببطء صاعداً البئر
درجة درجة وفى يده الجرة ..

وحينما أخرج رأسه من تحت الماء أخذ نفساً طويلاً عميقاً وناولنى
الجرة وهو يهمس :

— هذه المياه شافية للأمعاء والكلى .. خذ منها جرعة وافية ..

وكننت أنظر إليه وأتحسسه وأنا غير مصدق .

كيف .. كيف ..

أخذت يديه أقبلهما ولكنه سحبهما بشدة واكتسى خداه
بحمرة الخجل ..

— خذ جرعة من هذه المياه ..

— ولكن يا سيدى كيف .. كيف .. كيف فعلت هذا ..

— وهل فعلت شيئاً غريباً ..

وكانت السحب السوداء قد بدأت تتجمع فوق الجبل ثم
انفتحت فجأة كأنها قرب ونزلت سيولا كاسحة .

ورأيت البراهما يرسم الصليب على صدره ، ويتمم بآية
من الإنجيل ، ثم يتمم بآية من القرآن ، ثم يقرأ آية من المرموز
الخامس ، ثم يقرأ من كتاب الدامابادا (كتاب الطريق لبوذا) ..
ثم يهمس وهو ينظر إلى السيول التي تجرف الأكواخ الصغيرة
في طريقها ..

— هناك أطفال يموتون الآن .. علينا أن ننزل لنساعد من هم
في حاجة إلينا ..

ونزلنا هابطين الجبل .. وبدأ السيل ينحف تدريجياً حتى توقف
تماماً حينما بلغنا أقدام الجبل ..
وسطعت الشمس براقه حامية ..

ونظرت في دهشة إلى الرجل العجيب الذي يحفظ جميع الكتب
السمائية .. ويرتل آيات من جميع الأديان ، ويحيط بالرياضة والعلوم
والفلسفة واللغات ..

أى رجل هو .. ؟ !

وعلى أى دين ؟ !!

ومن أى ملة ؟ !

— لقد حطمت جميع القوانين ..

— أنا لم أحطم شيئاً .. لا أحد يستطيع أن يحطم قانوناً .
إن ما فعلته كان وفقاً للقانون ..

— أى قانون .

— القانون الأعلى .. حينما تصعد العصاراة في النخلة إلى أعلى ض
قانون الجاذبية لعشرات الأقدام في الهواء .. هل يقول أحد أ
النخلة حطمت قانون الجاذبية .. أم هم يقولون في علم النبات ل:
صعدت وفقاً لقانون أعلى من قانون الجاذبية ..

— إنهم يقولون إنها صعدت وفقاً لقانون الحياة ..

— وهو أعلى من قانون الجاذبية .. وقانون العقل أعلى من الاثنين
وقانون الإرادة أعلى من الكل .. لقد قت بإثبات تفاضل القوانين
بتجربة متواضعة أمامك .. هل قرأت عن تفاضل القوانين
في الرياضة ..

— لا .. لم أقرأ ..

— إنك لم تدرس بما فيه الكفاية .. وهذا كل ما في الأمر ..
خذ جرعة طيبة من هذه المياه ..

وناولني الجرة . فأخذتها وأنا غير مصدق .. ولمستها وكأني
ألمس شبحاً .. وشربت حتى ارتويت ..

وعند أقدام الجبل صادفنا الدليل كما كوما مع بعض من أعضاء
الوفود في جولة سياحية . . . وحينما رآني في صحبة البراهما وقف
يبرطم ويشير نحونا في سخرية . . .

ورأيت البراهما يضحك ويهمس مشيراً ناحية الرجل . . .

— انظر إلى الظل الذي يلقيه الرجل على الأرض . . .

ونظرت ناحية كما كوما فرأيت يلقى على الأرض ظل حمار . . .
بأذنين طويلتين مشرعتين ورأس مستطيلة وخشم غليظ . . .

ولم أملك نفسي من الضحك عالياً . . .

والتفت نحوي أمرى خان وضغط على ذراعي هامساً :

— يكفبك ما رأيت لرحلة اليوم . . . لقد اقترب وقت الغذاء
ولا أظن أنك ستأكل من طعام البراهما . . .

— ولم لا . . .

فضحك أمرى خان . . .

— إن البراهما لا يأكل شيئاً . . . إنه يتغذى بنفس الطريقة التي
يتغذى بها تحت الماء .

— ياساتر . . .

— أظن أنك لم ترتفع بعد إلى مستوى هذا اللون من الغذاء .

— إلى هنا وأعترف أنني مازلت حيواناً وأقل من الحيوان
في الغذاء .

— إذن تعال معي إلى هنا . . .

وهكذا التفتأنا من البراهما وانصرفنا بعد أن ضم كل منا كفيه
أعلى في تحية وإجلال واحترام وأخذني أمرى خان تحت ذراعاه
« إنه سيطلعني » التندوري . . .

— وما هو التندوري . . .

— سوف تعرف ما هو التندوري حينما نصل إلى « موقى محل »
مطعم شعبي في الهند . . .

ولكنني كنت مازلت أفكر في الرجل الذي أغلق عينيه تحت
ونام . . . في الرجل الذي يحفظ جميع الكتب السماوية ويؤمن
بجميع الأدیان ويصلي بجميع اللغات . . . ويتمدد على الأرض إذا
متم يطير .

— ألا يكون كل هذا حلم . . .

— لا تكون كل هذه الرحلة إلى الهند أضغاث أحلام . . .

ولكنني سوف آكل التندوري . . .

وفي مطعم « موقى محل » قدموا لنا « التندوري » وهي دجاجة
ملية مشوية ومصبوغة بلون احمر فاقع . . . ومعها طبق من الكاري . . .

وطبق آخر اسمه التابوكا (طعام يشبه البطاطا) مع أطباق عديدة
الموز المجفف والمانجو والمخلل والمملح . . وأكواب من عصير
الممزوج بالشطة . . وسلطات من كل لون .

وكانت أكلة حامية ملتبة لاسعة لكثرة ما فيها من بها
حريفة . .

ولكن ما بعقلي من أسئلة محيرة كانت تلسعني أكثر .

سألني صديقي وهو يأكل الدجاجة بيديه . .

— هل أحببت الأكلة الهندية . .

— لا أفهم لماذا تضعون الشطة في كل طبق وفي كل
من الطعام . .

— لو لم نفعل هذا لنامت أمعاؤنا من شدة الكسل و
إن الشطة عندنا قانون بيولوجي . . أعتقد أنه القانون الوحيد
لم يستطع صديقنا البراهما أن يعلو عليه . .

— بني وبينك ، أنا أحياناً لا أصدق ما يأتي به ذلك البرا
من أفعال . . هذا غير معقول .

— ما هو الغير معقول . .

— كل ما شاهدته اليوم والأمس غير معقول . . إنه ساحر مشعوذ
إني أحياناً أصدق كا كوما . . تصور إنه يجعل كا كوما يلتقي على الأرض
ظلاً يشبه ظل الحمار . .

— لأن كا كوما بالفعل حمار . . هل تعتقد في تناسخ الأرواح . .
أنا أعتقد أن كا كوما قد حلت فيه روح حمار . .

— ولكن رأى كا كوما يريخني . . الاعتقاد بأن البراهما ساحر
مشعوذ دجال هو رأى مريح جداً . . أما الإيمان بالخوارق التي تأتي
بها فإنه يؤدي إلى الخبال والجنون . . نعم سوف يصيبني هذا
الرجل بالخلبال من طول التفكير فيما يفعله . . أؤكد لك أن كا كوما
على حق . .

— أنت تريد أن تستريح وحسب . . لا تريد أن تواجه
الحقيقة بأي ثمن . .

— إن الثمن لن يكون أقل من الجنون . هذا الرجل يثير
مشكلة أكبر من عقلي . . أكبر من قدرتي .

— الظاهر أن الشطة كانت أكثر من اللازم . . وأنها تسربت
إلى دمك . . وإلى مخك . . أنت في حاجة إلى ملطف . .

وصفق أمرى خان للجرسون وكلمه بالهندية . . فغاب
الجرسون لحظة وعاد يحمل صينية عليها عدة أطباق صغيرة بها
بنسون وحبان ومستكة وكمون وسكر نبات . .

وأشار على أمرى خان بأن أمضغ من هذه الأصناف ما أستطيع
قائلاً إنها مهدئة ملطفة ومهضمة . .

— المهم ليس ما أستطيع ولكن ما أستطيع . .

ولم ينتظر أمرى خان أن يختار ما أستهيغ وما أستطيع وإنما ما
حنانه من كل صنف وعبأ لى جيوبى . . قائلًا لى سوف أحت
إلى هذه العطارة الشافية . . وأنى لا أعرف الهند ولا أعرف ما
يفعله الطعام الهندى فى البطون .

وغادرنا المطعم . .

ولاحظت أن الهنود يقفون على محطات الأتوبيسات فى طوابير
منظمة وكانت هذه الظاهرة فريدة فى نوعها وغير مفهومة بالنسبة
إلى كثرة مظاهر الفوضى الأخرى فى الحياة اليومية فى الهند . .

وركبنا أول تاكسى . .

وانطلق بنا مسرعاً إلى الفندق يخرق الشوارع الضيقة والأزقة
التي يتكدس فيها الزحام فى مهارة غير عادية . .

وقال لى أمرى خان إن عدد سكان الهند أكثر من أربعين
مليون والسبب فى هذه الكثرة أن أغلب السكان ينامون مع غروب
الشمس ولا يجدون إلا لعبة واحدة يلعبونها وهى لعبة النسل . . وأن
الهندي الفقير لا يفهم ما معنى تحديد النسل فليس عنده شيء آخر
يفعله . . وهو يعتمد على السيول والمجاعات والأوبئة فى تأدية مهمة
تحديد النسل بحماس ونشاط أكثر منه . .

وسكت أمرى خان فجأة وغمزنى قائلًا وهو يشير امامه إلى
بقرة فى الطريق . .

. . انظر ماذا سيفعل سائق التاكسى حينما يقترب من البقرة . .

وما فعله سائق التاكسى كان شيئاً غريباً بالفعل . . فقد أبطأ
العربة ثم أوقفها وفتح بابها ونزل ليقف فى إجلال وتوقير انتظاراً
لور البقرة . . وهو ما لم يفعله لأى بشر . .

وظل واقفاً فى خشية وتبتل حتى مرت البقرة متهادية فى دلال
تبعدها عن الطريق ، ثم عاد إلى كرسيه أمام عجلة القيادة
وستأنف رحلته . .

وهمس أمرى خان . .

إن البقرة عندنا كائن مقدس إلهى . .

— حسناً .. اعتبر نفسك واحداً من أهل الله .

— ومن أصحاب السوابق الذي لم يقبض عليهم بعد .. اليس كذلك ..

— إن اكتشاف عشرة أطباء دجالين لا يعني أن المهمة كلها دجل .

— هل تريد أن تقول لي أنك تعتقد في خرافة الوسطاء أيضاً .
— ولم لا .. إن هناك ظواهر في حاجة إلى تفسير .. والوساطة هي تفسيرها الوحيد .. فلماذا لا يكون تفسيراً مقبولاً .. هل تستطيع أن تفسر لي اتصالنا الفكري منذ لحظات .

— الصدفة .. مجرد الصدفة .

— هذا يعني أنك تعتبر ما حدث دالاً على لا شيء .. مجرد صدفة ..

— نعم .

— ولكن من الملاحظ ، هذه الصدفة تتكرر كثيراً في حياتنا بدرجة ينفيها قانون الصدفة نفسه .. وأنت تعرف أن علم النفس اعترف بهذه الظاهرة وأدخلها في علم ظواهره العلمية تحت اسم « التيليساثي » ..

— إن علم النفس أصبح يدعى أشياء كثيرة هذه الأيام

كنت أذرع غرفتي في الفندق ذهاباً ورجيئة ، وقد استغرقت في تفكير شديد والساعة تدق نصف الليل حينما طرق الباب ودخل أمرى خان سائلاً في قلق :

— هل أرسلت في طلبى ؟

وشعرت بالدهشة ، فقد كنت أفكر فيه طول الوقت .. وكنت على وشك أن أرسل في طلبه .

وصارحته بالحقيقة ، فابتسم :

— هذا معناه أن هناك اتصال أفكار بيننا .. لقد أصبحت وسيطاً روحياً بعد خمسة أيام من قدومك إلى الهند .. هذا تقدم تحسد عليه .

وضحكت ..

— وسيطاً روحياً .. هل تعتقد في هذا الكلام الفارغ .. إن هؤلاء الوسطاء يسمونهم في بلادنا المشايخ وأهل الله .. ونصفهم دجالون وأصحاب سوابق .

— هل تسمح لي بأن أدخن غليونى .

وأخرج غليوناً فاخراً أشعله .

— إن ميزة الغليون أن دخانه يطرد البعوض .. نستطيع أن
نفتح النافذة الآن ، فلا خوف من دخول البعوض فى مثل هذ
الظلام .. ومثل هذه المدخنة .. مشتعلة .

وفتح النافذة ، وتدفق نور القمر .

كان القمر بديراً ..

واتكأ أمرى خان على النافذة ومضى يدخن فى شراهة .. ثم
قال بعد فترة صمت :

— منذ خمس سنوات كنت فى إنجلترا مع البراهما واجيسوارا ..

واقترح على البراهما أن نحضر جلسة روحية للوسيطه مسز ماكنزى
فى جمعية مارلبورن بلندن ، فوافقت من باب الفضول ، فأنا مثلك
لا أو من بشىء خارج دائرة حواسى المباشرة ..

وبدأت الجلسة بإطفاء الأنوار وتلاوة بعض الأناشيد الدينية
وعزف الأرغن ، ثم سمعت صوت مسز ماكنزى واضحاً .. « إلى
السيد أمرى خان الذى يجلس فى الصف الأول .. هناك رسالة من
والدك الميت » .. ووقفت مندهشاً بينما كانت السيدة تكتب ما تطلبه
عليها الروح بالكتابة التلقائية .

— ٤٠ —

وعندما أضيئت الأنوار .. وطالعت الرسالة لاحظت أنها مكتوبة
بالدغة السنسكريتية .. وأن إمضاء والدى عليها واضح ؟ لاشك
فيه .. وكان مضمون الرسالة باختصار أنه سعيد فى العالم الذى يعيش
فيه وأنه يصلى من أجلنا ..

وعندما أطفئت الأنوار من جديد .. قالت الوسيطه .. إن
روح السيد الوالد ما زالت حاضرة وهى تسألك إن كنت تريد
شيئاً .. فقلت لها : أريد أن تصف لى بالتفصيل العالم الذى تعيش
فيه .. وبعد فترة صمت .. بدأت روح والدى تلتق وصفاً تفصيلياً
عن العالم الآخر ..

واعتدلت فى مكافى .

وقلت فى فضول وقد أثارتنى القصة :

حقاً .. إنه لشىء طريف .. أنى لمشوق جداً إلى معرفة
هذا عالم ..

— والغريب أن وصف الروح كان أقرب للوصف العلمى ..

.. إن هذا يزيد فضولى ..

.. قالت الروح أن العالم الآخر ليس له موقع جغرافى وإنما
هو فضاء وحولنا . فهو ليس مكاناً ... وإنما هو حالة تختلف فيها
درجة الذبذبة ..

— ٤١ —

— غريب أن والدك هو الآخر يتكلم بلغة الذبذبات .

— لقد كان أستاذاً في الطبيعيات في كلية دلهي .

— هذا حسن .. إن وصفه سيكون دقيقاً ولا شك ..

— قال إن عالم الآخرة شبيه بالدنيا ، ولكنه ألطف وأكثر بهاء ونقاء وتألقاً .. في الآخرة أرض وسما وأمنهار وأشجار ومباني ومدن ، وفيها فاكهة وطعام ، وفيها مدارس ومعاهد ومسارح وموسيقى وفنون .. والإنسان فيها لا يبني بيوتاً بمسواد الأسمنت والطوب والحجارة ، وإنما هو يبني بعقله وخياله وإرادته الخالقة . يتمنى فتنحقق أمنياته بدون مادة وبدون أدوات ، فتقوم مباني وفيلات وعمائر وقصور من تلقاء نفسها .. وهو حين يأكل يتذوق فقط . فيشعر بطعم الفاكهة ولكنها لا تنزل في أحشائه لأنه بلا أحشاء .. وهو لا يلبث أن يقلع عن عادة الأكل هذه حين يفيق من أوهامه الأرضية التي جاء بها بعد أن انسلخ عن جسده ويكتسب عادة الروح التي تقف بالحب وتنزود بالعمل الصالح .

والأرواح تتكلم مع بعضها بدون لغة .. تنقل الأفكار وتتلقاها مباشرة عن الآخرين .. وهي تنتقل في الفضاء بسرعة الفكر .. بمجرد أن تفكر الروح في مكان تنتقل إليه بدون مواصلات . ولكن الروح قد تبني قارباً للنزهة إذا كانت مازالت متعلقة بعاداتها الأرضية .

ولا يوجد ظلام في الآخرة .. وإنما هناك نهار متألق وليل قصير تنضيء سماؤه طول الوقت بشفق بديع .

وهناك أمراض وآلام في عالم الروح ، وكماها آلام نفسية وعذابات ضمير .. ويكون علاجها بإدراك الشخص لنفسه واكتشافه لحقيقته من خلال العذاب .. وقد يتم ذلك بمساعدة طبيب من أطباء روح ، ويكون في العادة روحاً هادئة طيبة .

والموسيقى تؤدي في العالم الآخر بالفكر ، وتنتقل بالفكر بدون كلمات .. والنحت والرسم يؤدي بالخلق الفكري المباشر .

ولا يحدث للروح موت .. وإنما يحدث لها انتقال إلى درجة أعلى من عالم أسمى . وذلك بأن ترتفع ذبذبتها كلما اقتربت من الكمال . فتدفع إلى عالم أكثر شفافية ، حتى تبلغ غاية تطورها وكماها ، فتصل إلى روح الأعظم وتندمج فيه ..

قد تانسخ الروح وتعود إلى الأرض وإلى حياة اللحم والدم . هذه عملية من مراحل الغداء والتضحية والألم . لتجني الخبرة وسعادة .. إذا كانت الخبرة والحكمة ما زالت تنقصها ..

روح في العادة تقوى بمرور الزمن ، ولا تضعف . لأنها تزداد قوة .

.. سب قد يؤدي إلى اندماج روحين في روح واحدة ..

والروح في الآخرة تحتفظ بذاكرتها كاملة ، وهي تستطيع
تستعيد كل تفاصيل حياتها الأرضية ، بما فيها من خطايا وذنوب
وتعاني الندم والألم حتى تنطهر ..

وبعض الأرواح تستطيع أن تتخاطب من خلال الأحلام بأقاربها
من الأرضيين ..

وبعض الأرواح الشريرة تلبس الأجسام الأرضية وتصيبها بالبلوغ
والجنون والأمراض المستعصية ..

وبعض الأرواح الخيرة تلهم أحبائها الخير والمحبة والتوفيق
والبركة ..

وفي العالم الآخر حيوانات مفترسة ، ولكنها لا تفترس ، لأنها
فقدت الرغبة في الطعام ، فترى الأسد نائماً في حضن الحمل
وهناك فراشات وحشرات وحيوانات مستأنسة من كل نوع وزهور
جميلة من كل لون ..

وليس في الآخرة دول ولا سياسات ولا حكام .. لأن الأرواح
يحكمها قانون التوافق الطبيعي ، فكل روح في مرتبتها المتفقة مع
ما بلغته من نضج وحكمة وخير ..

إن الحكمة والمحبة تهبها الذبذبة العالية التي تساعد على

لتحليق إلى المرتبة الأرفع التي تناسبها .. بينما لا تستطيع روح منحطة
أن تبلغ هذه الذروة ، فتظل في مهاويها السفلية ..

قانون التوافق يعمل في إحقاق العدالة بدون نظم سياسية
وبدون حكام .. فكل واحد يأخذ مكانه الصحيح ولا يستطيع
أن يتجاوز ..

ولا توجد حروب ، لأن صراع الخير والشر يتخذ مظهراً
عقلاً ضمائرياً ..

ولا يوجد إكراه ولا إجبار ، وإنما حرية مطلقة .

والحرية هناك في التوافق مع القانون السماوي ..

ولا كهولة ولا شيخوخة في الآخرة ، فالأرواح تعود إلى شبابها
وتكوينها الناضر .

والأطفال ينمون بسرعة إلى طور الشباب ..

وسكنت أُمري خان لحظة ، ومضى يدخن ، بينما سألت أنا في
شوة ..

— وماذا عن الجنة والجحيم ..

— الجحيم في الآخرة ليس دائماً الحريق ولا النار ، وإنما هو
مذاب له صور شتى ..

لحظة الانفصال بالموت ، تكون لحظة ألمية طويلة ، **الشرير**
للأرواح الشريرة .. وبعد الموت تظل الروح الشريرة **تعاذ** من
عاداتها الأرضية ، فيخيل لها أنها ما زالت لها جسد ، وبالتالي تشعر
بالآلام الجسدية التي كانت تعانيها على الأرض .. وتشعر بجوع
وبالتعب والأمراض والأوجاع البدنية .. وقد تستمر هذه الفترة
سنوات وقرون حتى تدرك خلاصها ..

وتظل ذنوب الروح الشريرة شاخصة أمامها طول الوقت ..
فالقاتل يظل يرى صور ضحاياه ويسمع أنينهم ..

ولا يكون عذاب الروح بصدور حكم محكمة بالإدانة ، **وإنما هو**
عذاب تلقائي ، نتيجة لنقصها .. مثل التخممة ، نتيجة الإفراط ، **والملل**
نتيجة الكسل ..

العذاب جزء من قانون التوافق السماوي .. لا إكراه في
ولا إجبار .. لكل بحسب عمله .

وبعض الأرواح الشريرة تعيش في عزلة وظلمة مع الأرواح
الشريرة أمثالها .. حياة كلها أحقاد وأضغان ..

ويكون عذاب الأرواح المنافقة بافتضاحها ، وعذاب الأرواح
المتكبرة بهوانها ، أمام من كانت تحقرهم ، وعذاب الأرواح الأنانية
بحياتها في وحدة ، حيث لا تجد أحداً يعنى بأمرها أو يفكر فيها

وداخل النفوس تكون مكشوفة لأصحابها في الآخرة ، وهذا
لأن آخر من ألوان عذاب الأرواح الشريرة ، فهي تعيش في مكاشفة
منه لنفسها المظلمة وخطاياها ..

وبعض الأرواح الشريرة تعود بغير انقطاع إلى حيث دفنت
جثتها ، حيث تخلق حول القبر وتشعر بأجسامها تتحلل والدود ينخر
فيها .. وقد تظل تعاني هذا الارتباط الوهمي سنوات .

وتظل الأرواح التي انتحرت تعاني من لحظة انتحارها .. وقد
توت روح انتحرت بإلقاء نفسها من برج .. أنها ظلت تعيش في
نازة شعور مخيف بأنها تهوى من حائق ، وأنها على وشك الارتطام
بالصخر .. وظل هذا الشعور الفظيع يلزمها أكثر من مائة
سنة ..

وبعض الأرواح الشريرة يقضى عليها بالعودة إلى لعنة الميلاد .
تقتاسخ من جديد في اللحم والدم ، وتعود إلى الحياة الأرضية لتكفر
عن آثامها ..

وبعض الأرواح المخطئة تشعر بالنور الباهر ، كأسياخ من حديد
تترقها وتغشى بصرها ..

ولكن عذاب الأرواح دائماً ، عذاب موقوت محدود له آخر ..
وهو ينتهي في العادة لحظة يقظة الروح وندمها ، واكتشافها

لجهالتها وترديها .. في تلك اللحظة، تخف أثقالها، وترتفع ذيلبتها،
فتخلق إلى عالم أجهل وأكمل .. ولذا كان عذاب الآخرة لوناً من
التطور والارتقاء والتعلم ، لا ضرباً من التنكيل والانتقام .. فهو
عذاب لفترة وليس للأبد ..

أما الجنة ، فهي حياة الروح ، في محبة وعمل وارتقاء دائم إلى
آفاق لا نهائية ، حيث تبلغ الروح الأعظم وتندمج فيه ..

وسكت أمرى خان ، ومضى يدخن ويتطلع إلى القمر
قلت في استغراب ..

— هذه الصورة عن العالم الآخر تشبه فكرة أفلاطون عن
عالم المثل .. إنها أشبه بالخيال الأرضي منها بالخيال الروحي ..
أنا أعتقد أن ما قالته الوسيطة مسرماً كنزى هي تصوراتها الشخصية
وقراءاتها الشخصية في الفلسفة والتصوف .. وأن ما رويته عن
العالم الآخر ، هو تخميناتها ، ولا دخل للأرواح في الأمر ..

— من الجائز .. إنما أحببت أن أطلعك على ما سمعت .. ولا أنكر
أني فكرت مثلك ساعتها .. برغم الرسالة المكتوبة بالسنسكريتية
وعليها توقيع والدي ..

— إن الوسطاء المحترفين في العادة يتقنون اللغات القديمة .. هذه
تجارتهم الراجحة .. وهم يعرفون كيف يروجونها ..

— لقد كانت هذه نظريتي .. ولكنني عدت فقلت لنفسي ..
ولماذا لا يكون أفلاطون في نظريته عن المثل .. وسيطاً ملهماً أكثر
منه فيلسوف .. ألا يمكن أن نعتبر الشعر والفلسفة والموسيقى إلهامات
تصلنا في لحظات الصفاء .. شأنها شأن أية وساطة .. ويكون أفلاطون
في جمهوريته في هذه الحالة يروي حقيقة أكثر مما يروي فرضاً
فلسفياً ..

— هذا غاية في الشطح .. لم يبق إلا أن تصنع لي أجنحة وأنا
واقف بجوارك ..

— صدقني أن لنا أجنحة خفية ، هي عقولنا وأرواحنا ..

— سوف تتعب نفسك كثيراً يا صديقي .. أما أنا فقد أرحت
نفسي من كل هذه الفروض .. أنا بشر من لحم ودم وحواس ..
ولا شيء حقيقي سوى الواقع اليومي الذي أعيشه ..

— وماذا تقول فيما يفعله البراهما .. أليس واقعاً لمستهم
بيديك ..

— لقد اعتبرت ما رأيت ، شعوزة واحتيالاً ، وخداع حواس ،
وأرحت نفسي ..

— حينما تبدأ بتكذيب حواسك .. فقد بدأت قصة تعبك ،
صدقني ..

لا راحة في هذا الطريق الذي سلكته أبداً ..

— إني أفضل أن أفكر على طريقة كما كوما ..

— لا تنس أن جميع العلوم اليقينية التي تعتز بها قد بدأت على شكل خرافات وأساطير ، ولو تتبع منشأ الطب وعلم النفس والطبيعة والكيمياء والذرة ، لعجبت في أنها كلها بدأت بتخمينات وشطحات وأحاجي ، مثل هذه الأحاجي التي يقدمها علم الأرواح تماماً ..

— حسناً .. سوف أنظر حتى يصبح علم الأرواح علماً يقينياً ، بدلاً من أن أتعب نفسي في الأحاجي ..

— ولماذا لا تعمل شيئاً بدلاً من الانتظار .. فقد نستطيع — إذا فكرنا سوياً — أن نصل إلى شيء .. وأن نختصر طريق الظلام الذي نسير فيه ..

هل نسيت أن المجال المغنطيسي للأرض ظل مجهولاً حتى اكتشف بواسطة الحجر المغنطيسي صدفة .. وبالمثل كان الوسطاء هم البوصلة التي كشفت المجال الروحي للإنسان .. هكذا .. بالصدفة أيضاً .. صدفة الإلهام ..

— إني رجل علم .. أعطني مقدمات معقولة أولاً ، وأنا أسير معك إلى آخر الدنيا ..

إما أن أبدأ رحلتي بلا معقول .. فإن النهاية سوف تكون معروفة سلفاً .. إنها مستشفى المجاذيب ..



— فكر قليلاً . . إن كل ما رأيت وسمعت هو المعقول بعينه . . كل ما في الأمر أنك يجب أن تطرح عنك التفكير العادي والمبتذل والمألوف . . وتفكر بعمق . . بعمق طفل ينظر إلى الدنيا من جديد . .

— بعمق طفل . . لقد قلتها . .

— إننا ما زلنا في طفولة الفكر ، صدقتي . . وهذا النصيح الذي يصوره لنا اليقين . . هو نصيح زائف . . فلا يقين هناك . . أكثر من يقين للترجيح والاحتمال . .

— ما زلت أفضل طريقة كما كوما في النظر إلى الأمور . . ليس لدينا وقت للشطح في المجهول . . هناك أمر عاجلة تنتظرنا . . والعالم أفقر وأتعب من أن نضيع وقته في سنوات أخرى من التخمين . .

— أعتقد أن هذا الكلام يضع نهاية واضحة لحديثنا . .

ونظر إلى ساعته مردفاً . .

— لقد أسهرتك أكثر مما ينبغي هذه الليلة . . لقد فات موعد نومك بكثير . . استأذنيك . . وأرجو لك نوماً طيباً . .

قال هذا ورفع كفيه مضمومتين في تحية وداع وانصرف . . وبقيت وحدي في الغرفة مع القمر . . والصمت . . والظلام . .

وحده . . الأغصان في الحديقة . . ونسألت إلى مناصلي رعدة . . كنت أفتح الباب وأجري خلفه . . أولاً أني تماسكت بقوة . .

إن في جو الهند شيئاً لا يمكن أن يوصف .

و لعله الوهم . . وهم القراءات العديدة التي قرأتها عن الهند . .

وما هو قمر مثل كل الأقمار . . وحديقة مثل كل الحدائق . . وليس مثل أي ليل في الدنيا . . وفندق مثل كل الفنادق . . وإنما الذي يختلف هو عقلي الذي فقد وضوحه واتزانته . .

وسكنت في فراشي وعيني إلى النافذة أستأنس بضوء القمر . .

سرى الخدر في عقلي . . والتنميل في أطرافي . . وشعرت أنني أموت من تعب والإرهاق . . وطول التفكير . . وأن رأسي بها ثقالة من حديد ، وأنها تتضخم . . وتتضخم . . وأني لا أستطيع رفعها من السادة . . وأن أطرافي تتيبس وتتخشب ، فلا أستطيع لها حراكاً . . وأني التحول إلى مجرد وعي سجين في جاكته جيس . .

في ذلك داهمني إحساس غير معقول . . بأن النافذة التي أنظر منها هي في الجهة الغربية من الحجرة . . بينما نافذة غرفتي على ما أتذكر . . هي في الجهة الشرقية . . إذن فأنا في غرفة أخرى غير غرفتي . . ونظرت في دعر إلى الحائط . . كانت هناك صورة كبيرة

لطاغور .. إنها ليست غرفتي بالفعل .. فلم تكن بغرفتي صورة
لطاغور .. لقد كانت هناك صورة لطاغور ، نفس الصورة بالإطار
المذهب ، ولكن في غرفة أمرى خان .. وكان هناك تمثال نصفي
لغاندى .. ها هو بالفعل ..

ونغممت في دعر .. لقد انتقلت إلى غرفة أمرى خان ..
كيف .. ومتى ؟

وصرخت من الدعر ..

• وخرجت صرختي مبهوكة خافتة مرعبة ..

فتحت عيني فوجدت أمرى خان واقفاً عند رأسي ، وفي يده
منديل به عطور هندية حادة ، يضعه عند أنفي ميتسماً .. همست
في ضعف ..

— أين أنا ..

— أنت في غرفتك في فندق أشوكا ، وفي أمان ، بين أصدقائك
وأحبائك ..

وتضعضت حواسي ، ورأيت نفسي أبكي فجأة .. أبكي في
نعاسة كطفل يتيم ضائع حائر بلا أهل ..

— أنت تبكي .. هذا غير معقول ..

— لقد كدت أفقد عقلي في هذه اللحظات القليلة التي مضت ..
كاد يودى بي كابوس فظيع .. خيل إلى أنني انتقلت فجأة ، وأني
في مكان غير المكان .. كنت أرى هنا تمثالا ، نفس التمثال الذي
على مكتبك .. وعلى الحائط صورة كبيرة لطاغور ، في إطار مذهب ،
نفس الصورة والإطار التي في غرفتك .. هكذا في لحظة .. وكأني

هواء . . . وكأني تخللت الجدران وانتقلت إليك دون أن أترك
مكاني . . . كان شيئاً خفيفاً . . .

— نحن في عصر تنتقل فيه كل الأشياء بسهولة . . . صوراً
تنتقل بالتليفزيون . . . وأصواتنا بالراديو . . . ورسائلنا بالبرق

لم يعد عجباً أن تنتقل أرواحنا . . .

— لم أعد أعجب لأي شيء أراه في بلادكم . . . لو قلت لي إن
روحي خرجت منذ لحظات ، لصدقتك ، فقد خيل إلى ساعتها أن
روحي خرجت مني . . .

— لقد كنت مغمى عليك تماماً . . .

— لعل مت نصف موت . . .

ورحت أتحسس نفسي غير مصدق . . .

— تصور لقد خيل لي أنني هواء . . . وأرق من الهواء . . .

— نحن هواء . . . وأرق من الهواء . . . ألا تنفذ فينا الإشعاعات ،
كأنها تنفذ في مادة خلاء . . . إن بصرنا كليل جداً . . . إننا لانرى
أنفسنا على حقيقتها . . .

— إننا مخلوقات جديرة بالإشفاق ، مخلوقات عمياء يهتدون
صمياء . . .

ولقد كنت أشعر ساعتها أنني أصبحت ذلك المخلوق الجدير
بثفاق فعلاً ، كنت أشعر أنني في حاجة إلى يد تأخذ بي إلى
أمن أمان . . . وأني أتقدم زحفاً منذ آلاف السنين . . .
في تعب . . .

لقد تعبت . . . تعبت . . . وأريد أن أعود إلى بلدي . . . لن
أبقى في بلدكم بعد الآن .

بهذه السرعة . . . إنك لم تكد تقضي بيننا أياماً . . . إنك لم
تزل من الهند . . .

لقد رأيت كل الهند . . . لقد رأيت منها ما يكفيني وزيادة . . .
لقد غيرتني هذه الأيام القليلة . . . بدلتنى . . . جعلت مني إنساناً غير
الإنسان . . . لقد اكتشفت أنني لم أكن أعيش . . . لم أكن أفهم شيئاً . . .
ومددت له يدي . . .

كنت عطشاناً إلى اليد الهادية التي تأخذ بيدي .

قلت له أنني أريد أن ألتقي بالبراهما . . . أريد أن أحج إليه . . .
وأنت من النصيح والبركة ، وأتعلم منه شيئاً جديراً بالعلم ، قبل أن
أعود إلى بلدي . . .

وأمسكت بيده وتطلعت إليه في قلق . . .

أظن أننا نحد البراهما في كهفه في هذه الساعة المبكرة . . .

قال بإشفاق ، وهو ينظر إلى عيني اللهفاتين :

— نعم إنها ساعة صلواته في العادة ..

— خذني إليه .. إني في أشد الحاجة إلى كلماته ..

* * *

وفي كهف البراهمة ، جلست عند قدمي الرجل الصالح ..

وكانت عيناى تدمعان انفعالا ..

قلت له : إني أريد أن أتعلم .. أريد أن أنهم .. أريد منه أن يأخذ بيدي ويدلني على طريق النجاة ، ويقرأ علي من آيات كتابه ..

قال الرجل الصالح في نبرات جليلة ..

— اعلم أن روح الله تملأ الوجود .. وأن كل مافي العالم من فن وفكر وعلم وجمال ، هي إذاعات من هذه الروح الكلية الخالقة ... وما روحك إلا قبس من هذه الروح الكبرى ، تتلقى منها .. أنت أحد آحاد الأحد الأكبر .

اعلم أن هذه الروح الكبرى ليست بشراً ، ولكنها الذات العليا ، والقانون الأسمى ، لكل الوجود .. اعلم أن الحياة لا تصح بغير صلاة ..

وأن صلاتك لا تكون نافعة ، إلا حينما تنسى أنك تصلي ، وتتوجه بكليتك إلى روح الوجود في صرخة استنجد واستغاثة ودهشة وإعجاب ، وحب وابتهاال مأخوذ .. فالصلاة ليست كلمة تنفوسها ، وإنما هي شعور بالقداسة والافتتان والإجلال والحب والفناء ، في المقام الإلهي الأرفع ، وإدراك بأننا قطرة من النبع الصافي اللانهائي ، نصدر عنه ونعود إليه ..

اعبد إلهك ، إلهاً موضوعياً ، تتمثل فيه وتصدر عنه جميع القوانين الطبيعية الحكيمة ، التي يكتشفها العلم ببطء ومشقة . وحاول أن تعيش في توافق مع نواميسه الحكيمة ، فهذه هي حريتك .

وتذكر أن الفضلاء من جميع الأديان ، هم في الحقيقة على دين واحد ..

تذكر أنك تبتعد عن روح الله ، كلما تقربت إليه بالطقوس البشعة ، والكهانات والمراسيم ، والكلمات الخالية من الشعور .. الدين الحقيقي هو أن تعبر عن حبك للروح الأعظم ، بحبك لأطفاله ..

وحينما تنسى ذاتك في خدمة الآخرين ، سوف تنمو ذاتك وتتعاظم في التركيب والقوة ..

بالعمل والمحبة وخدمة الآخرين ، تعبد إلهك ، وتشعر بجماله ..

كما أنك لا تستطيع أن تكون سعيداً ، وأنت في أسرة شقية ،
فكذلك لا يمكن أن تكون سعيداً ، وأنت في مجتمع شقى وعالم شقى ..

أنت مسئول لما يحدث لمواطن لك في آخر الدنيا .. هذا هو
الدين .. كل ما تقوله لك أنايتك شر ، لأنها تجعلك في عزلة عن
الآخرين ، وتحرم روحك من غذائها الطبيعي ، باتصالها بالحياة في
جميع مجالاتها ..

أنايتك تفقرك وتجذب روحك ..

تذكر أن السعادة ليست حظاً ، ولا بختاً ، وإنما هي قدرة ..

أبواب السعادة لا تفتح إلا من الداخل .. من داخل نفسك ..
السعادة تبحثك من الطريقة التي تنظر بها إلى الدنيا ، ومن الطريقة التي
تسلك بها سبيلك .

موقفك المشبع بالحب والتفاؤل يحول عذابك إلى كفاح لذيذ ،
ويحول محاربتك للشر ، إلى بطولة ونبل ..

إحساسك بالجمال يجعل الطبيعة تنبض من حولك بالموسيقى
والنعم ..

تفتحك للمعرفة يجعل رحلتك الشاقة ، نزهة مشوقة مذهلة ..

تواضعك يجعل الفشل لا ينال منك ..

تفانيك في عملك ، يجنبك ملل الفراغ وقنوطه وصغره ، ويفتح

في كنوز المعرفة ، وييسر لك مباحج الاكتشاف ونشوة النصر ..
تذكر أن الدين الحق ، لا يناقض العلم . لأن الدين الحق هو
منتهى العلم .

إن نظام الكون لم يرتعد أمام منظار جاليليو ، وإنما الذي ارتعد ،
وأنهك الكهنوت ..

إن عصرنا في حاجة إلى ديانة عصرية إنسانية مصفاة من أدران
الديانات . متفتحة للجديد من كل علم ومعرفة ، خالية من التعصب
عنصرية .. عالمية .. واحدة .. فالله واحد ونواميسه واحدة ..

وسكت الرجل الصالح وأغرق في تأمله ..

فنت له سائلا في خشوع ..

أريد أن أفهم ما الحياة .. وما العقل .. ومن أنا .. وهل
أنا نحي الذي يفكر ويتكلم ! ؟ ..

قال في ابتسامة إشفاق :

إذا كانت الساعة هي التي تفرز الزمن لقلت إن مخك هو
الذي يفرز التفكير ، ولكن الساعة لا تفرز الزمن .. ما هي
إلا وسيلة للتعبير .. وكذلك مخك ، ما هو إلا خادماً يعبر عن قليل
من شيء مما بعقلك .. وما التلازم بين ما يحدث لمخك من أمراض ،
وما حدث لفكرك من اضطراب ، إلا تلازم صوري ، كالتلازم بين

ولكنه لا يفسر ارتقاءها إلى فصائل ، أجمل وأرشق وألطف ..
فما وجه المنفعة هنا ..

وإذا اعتبرنا أن الفصائل الأجل ، جاءت نتيجة الانتقاء
الجنسى .. فالسؤال يظل مطروحاً .. ما وجه المنفعة في اختيار
الذكر للأنثى الأجل .. وأين العامل المادى هنا ..

إن التفسير الأكثر قبولا ، أن هذه المادة الحيوانية ، كان يرشدها
عقل ، يوجهها ويهديها ويعطيها الشكل والجسم ، مهما بدا في الظاهر
محكوماً بها ، ولذا كانت عملية التطور بطيئة غاية البطء .

إن التفكير المادى ناقص عاجز ، لا يفسر لنا حياتنا ، وهو
لا يعطينا إلا عمراً محدوداً شاحباً ، نهايته الموت بلا بعث ، بلا عزاء ،
بلا أمل ..

الموت ، ثم الظلام ، ثم لا شيء ..
نظرة قاتمة تسلب الفرد قدسيته ..

هم يعيبون على الشرق أنه سادر في أديانه وروحانياته ..
ولكن الأديان ردت للفرد كرامته وقداسته ، واعتبرته حقيقة
مطلقة باقية ، حينما أعطته روحاً تعلو على الموت وتتحدى الفناء ..
وهي بهذا أعطته العزاء والأمل ، وجعلت من عذابه كفارة ، ومن
آلامه فداء ..

مسمار ، وبين ثوب معلق عليه .. إذا اهتز المسمار ، اهتز الثوب ،
وإذا وقع المسمار على الأرض ، وقع الثوب .. ومع ذلك فالثوب
شيء والمسمار شيء آخر .. وكذلك عقلك ، يتجاوز حياتك الدماغية ،
ويبقى بعد فناء الدماغ .. لأنه شيء ، والدماغ شيء آخر ..

قلت في خشوع :

— والحياة .. ما الحياة .. ومن أين .. وإلى أين تنتهى بنا هذه
الدوامة ..

قال البراهما مبتسماً :

— كان أهل الغال أيام الإسكندر ، يتأملون النجوم على حساب
أنها نقوش في السقف ..

وما زلنا إلى الآن نتأمل الحياة ، على أنها ظواهر وعوس ،
حدودها ما نلمسه منها بالحواس ، لانحاول أن ننفذ إلى باطنها
وجوهرها ..

أن اعتقادنا بأن الحياة انفجار كونى ، نشأ بالصدفة ، مثل
اعتقادنا بأن انفجار في مطبعة ، يمكن أن يؤدي بالصدفة إلى أن
تتراص الحروف على شكل قصيدة لطاغور ، واعتقادنا بأن تطور
الحياة وارتقاءها كان بإرشاد الظروف المادية وحدها ، لا يفسر
تطور الحياة أبداً .. أنه قد يفسر ارتقاءها إلى فصائل أقوى وأقدر ،

ألا تشعر بعبقريّة الكون ونظامه وجماله وعدالته من خلال هذه
النظرة الدينيّة ..

ألا تشعر بالراحة ، لأن هناك ناموساً عادلاً يشملك ويرفعك ،
حرّاً مسئولاً باقياً خالداً على الزمان ..

أليس هذا دليل من داخلك على صدق الله ؟
— أهي الروحية مرة أخرى ..

ابتسم البراهمة في سماحة قائلاً :

سميها ما تشاء .. أنتكن « مادية » ، « مادية جديدة » أرق
والطف وأرحب وأذكى من المادية التي يفكرون فيها في الغرب ..
نحن لا نريد أن نتعارك على أسماء ..

إن روحنا ما هي إلا مادة .. في حالة جديدة لا نعرفها ..

— لقد عقدت بذلك الهدنة ، سوف نذكر لك على التاريخ ..

لقد صالحتني على نفسي ..

وثبتت طرف رداً ..

— أنت أجمل ما في الهند ..

— ما أنا إلا تراب الهند ..

— سوف يسعدني أن أعود إلى بلدي بنفحة من هذا التراب

المقدس ..

وكان هذا آخر يوم لي في الهند ..

وحينما كنت أضع قدمي في الطائرة بعد ذلك بساعات ، عائداً
إلى بلدي كان أمري خان في وداعي ، وكان يقدم لي منديلاً
ملفوفاً ..

— إنها صرة من الملح هدية من البراهمة ..

وأخذت المنديل بيد ضنيّة وأنا أهمس ..

— أشكرك على هذه البركة .. سوف يكون هذا الملح ..

ملح حياتي ونورها ..

وصعدت سلم الطائرة وأنا أضمه إلى صدري ..

وفي القاع كنت أرى عبد الرسول يصفر في فرح وهو يدق
بفأسه على الباب السرى الذى اكتشفه في قاع البئر ، ويزيح السقطة
الحجرية ، فاتحاً الطريق إلى غرفة الدفن . .

وكننت أنزل الدرجات في حذر ، ومعى معاون الآثار يتحدث
في انفعال عن التحف التى عثر عليها . . أساور وعقود وخواتيم من
الذهب والفضة . مكاحل وأدوات زينة ، من بينها مكشط للأظافر
لإزالة الزوائد ، من النحاس ، مقبضه مرصع باللازورد . . أوانى من
الديوريت والمرمر . . لوحات من العاج ، عليها مناظر للحياة الملكية ،
محفورة حفرأ بارزاً ، تماثيل من الأبنوس . . أقمشة ملونة من
الكثان . . حبوب من القمح ما زالت على حالتها ، وجدت محفوظة
في قوارير . مراوح وعصى وكراسى من الخشب والجلد . . آلات
نفخ موسيقية . .

وتقدمنى معاون داخلا من الباب السرى إلى غرفة الدفن . .

وكان أول ما لفت نظرى أن التحف مكمومة في غير نظام حول
التابوت .

وقال معاون إنها عثر عليها بهذه الصورة .

وكان التابوت المرمر فارغاً ومغطى ، ولا أثر فيه لأى مومياء
أو لأى مخلفات تدل على مومياء .

وكانت تنتظرني أخبار مثيرة لحظة وصولي إلى القاهرة . .
وجدت على مكتبي بمصلحة الآثار عدداً من أوامر التكليف
بالانتقال فوراً إلى مناطق الحفائر في سقارة والأهرام وتل العمارنة
لمعاينة الكشوف الأثرية التى تمت هناك ، ولقراءة البرديات
الهيروغليفية التى عثر عليها ، وكان معنى هذا أن أحزم حقيبتي
وأسافر في الحال . . فلم يكن هناك من يحل محلى في هذه المهمة .
كخبير متخصص في اللغة القديمة . .

وفي الخرائب والأنقاض وبين الحطام وبين أكوام الرديم
حول المصاطب الفرعونية القديمة ، شعرت أنى أعود إلى عالمي . .
ذلك العالم البائد الذى عاشته عشرين عاماً من عملي مفتشاً
بالآثار .

وكان العمال يشيرون إلى البئر الأثرية التى اكتشفت . .

بئر محفورة في الصخر ، تنزل عمودية مسافة أربعين متراً .

وكان العمال لا يزالون يكسحون الرمال والحصى من داخلها ،
ويكشفون عن درجات السلم التى تصل إلى قاعها . .

وكان الأمر محيراً .

معنى هذا أن المومياء سرقت . .

ولكن إذا كانت المومياء سرقت ، فكيف غفل اللصوص عن هذا المتاع الثمين المكوم بجوارها .

ولماذا كرمت هذه التحف النادرة على هذه الصورة .

ولماذا لم تسرقها اليد التي كومتها . .

وكيف يسرق السارق جثة لاتنفعه بشيء ، ويترك ذهباً بهذه القيمة . . كان هناك تفسير واحد . . أن المومياء كانت مدفونة في مقبرة أخرى اقتحمها اللصوص وأتلفوا الجثة (على عادة اللصوص أيام الفراعنة) وسرقوا ما أمكنهم سرقة من متاع المقبرة . . ثم فطن الكهنة المشرفون إلى أمر السرقة وما حاق بالجثة من تلف ، فنقلوا التابوت الفارغ إلى مقره الجديد وغطوه ، وأخفوا أمر السرقة عن فرعون ، وكوموا ما تبقى من متاع حول التابوت ، وتركوا كل شيء في فوضى ، لأنهم كانوا في عجلة من أمرهم ، وفي رعب من أن يكتشف فرعون ما حدث فيعاقبهم عقاباً شديداً على تقصيرهم في حراسة المقابر (ولم يكن لكهنة المقابر عمل في تلك الأيام سوى حراستها من اللصوص) .

ومعنى هذا أن التابوت لشخص عظيم القدر .

وإذا كان هذا المتاع هو ما تبقى من المقبرة بعد سرقتها ، فلا بد أنه كان متاعاً فخماً هائلاً . . وهذا يؤكد مرة أخرى أهمية الميت . .

ولاحظت أن غرفة الدفن مبطنة بكتل من خشب الأرز . . وهو خشب كان يجلبه الفراعنة ، بإرسال بعثات إلى جبل لبنان . . ومن بين التماثيل التي عثرت عليها في الكومة حول التابوت ، كانت هناك تماثيل صغيرة : لطحان ، وعجانة ، وخباز ، وكاتب ، وجواري وراقصات ، وحاملات جرار ، ووصيفات . .

كنت أمام صاحب قصر ، ربما وزير ، أو أمير ، أو ملك ، فهؤلاء هم الذين كانوا يدفنون بهذه الأبهة ، ومعهم تماثيل لحاشيتهم وخدمتهم وموظفو ضياعهم ، حتى إذا بعثوا بعد الموت ، كما كانت تقول لهم تعاليمهم القديمة ، وجدوا أنفسهم يستأنفون حياتهم الأولى بكامل أبنتها ، بين خدمهم وحشمهم . .

وطبقاً للأساطير الفرعونية يخرج من الجسم بعد الموت روح نورية هي « با » وشبح مادي يماثل الميت في كل شيء هو « كا » .

وهذا الشبح المادي يعود بعد الموت ليبحث عن صاحبه ، فإذا وجد جثته حافظة لمعالمها وشكلها ، تذكرها وحل فيها فبعثها حية .

ولهذا حرص الفراعنة على تحنيط جثثهم لحفظ معالمها حتى تستدل عليها « الكا » ..

و « الكا » تستطيع بالسحر والتعاويد ، أن تحل في تمثال الميت أو رسمه أو صورته ، إذا لم تجد جثته .. لأن الصورة تذكرها بشبهها ..

ولأنها مادية فهي تحتاج إلى غذاء ، ولهذا يضع الفراعنة أواني الطعام حول موتاهم لتتغذى « الكا » .. ويقدم الكهنة القرابين الطازجة كل يوم ، ويقرءون الصلوات لتستطيع « الكا » أن تستمد منها غذاءها .

وإذا لم تجد « الكا » غذاء ، فإنها تستطيع أن تتغذى بالسحر ، من رسوم الطعام على الجدران ..

ولهذا جمعت مقابر الفراعنة بين فنون التحنيط والنحت والرسم لأنها الوسائل التي تتعرف بها « الكا » على شكلها وصورتها ، وتعود إلى حياتها الأولى ..

ولم يهتم الفراعنة بالـ « با » النورانية ، إلا من تبع منهم عبادة الشمس « رع » ، فحرص على الانتقال بعد الموت إلى السماء ، وهؤلاء بنوا الأهرامات العالية والمراكب الشمسية لمصاحبة رع في رحلته الأزلية عبر السماء .. هؤلاء كان الاندماج في النور الإلهي عن طريق « البا » هدفهم ..

كنت أسترجع في ذهني هذه الأساطير الفرعونية ، وأفكر في

نفس الوقت كلمات صديق الهندي ، أمرى خان ، عن الروح المادية اللطيفة ، التي تنتقل بعد الموت إلى عالم من الذبذبات ، أرق من عالمنا ، ولكن يشبه في كل شيء ، فيه فيلات وقصور ومستشفيات ومدارس .. وفيه فاكهة وزهور وحيوانات .. وفيه موسيقى وفن وأدب ، وفيه عمل وحب وخير وشر .

ما الفرق بين هذا العالم ، عالم الآخرة ، الذي تصوره الهنود ، « والكا » الروح المادية .. التي اعتقد فيها الفرعوني ..

وهي مثل روح صاحبنا ، تستطيع عند اللزوم أن تتغذى على الصور والرسوم ..

كان كلام أمرى خان يبدو لي مشابهاً للأساطير الفرعونية ، كما هو مشابه لفكرة المثل الأفلاطونية .

ولو أنى صدقته ، لوجب على أن أصدق الفراعنة ، ولوجب على أن أغرق في عالم الأساطير والخرافات إلى أذني ..

وكنت ما زلت أذكر العالم المسحور الذي عشت فيه مع البراهما ، فتعاودني الرجفة ، وتتخلل رائحة التابوت ، والمكاحل والعطور الباردة ، حواسي .. فتضاعف من تلك الرجفة .

وترتفع كلمات معاون الآثار مخيفة بربرية .

دأت روه . معاه بالنسبه لى : شهر عدة ليال فى فض الطلاسم
والرموز .

ولففتها فى حرص وأودعتها حقيبتى ..

وكان المعاون يشير إلى حلقات نحاسية فى جدران الغرفة ،
وإلى جبل من الكتان يتدلى من إحدى هذه الحلقات .. ويسأل ..
ماذا يمكن أن تكون ..

وكنت أكثر منه حيرة ، فلم يسبق لى أن رأيت مثل هذه
الحلقات فى مقبرة .. وأشرت إلى حقيبتى قائلاً :

— ربما وجدت الجواب هنا ..

أقصد فى البرديات ..

وكانت الغرفة الثانية تؤدي إلى سرداب وضعت به أسلحة من
كل نوع .. تروس ورماح وخناجر وعصى .. ونهاية السرداب
صماء مغلقة لا تؤدي إلى شيء ..

وكنت أسأل نفسى طول الوقت ..

من يكون الرجل العظيم صاحب المقبرة .

وهل هو : رجل ، أم امرأة ..

إن الأمشاط والمكاحل ، وسكين قص الأظافر ، وأوانى
مطور ، تشير إلى امرأة .

— تصور هذه الحبات من القمح .. عمرها أربعة آلاف عام .
وهى ما زالت على حالها .. ربما ضمرت قليلاً .. لكنها ما زالت
محتفظة بشكلها ، هل تظن أن هذه الحبات ما زالت حية ..

هل تظن أنها يمكن أن تنمو إذا زرعت .

هل يمكن أن يكون كلامه صحيحاً ؟!

هل يمكن أن تنمو هذه الحبوب بعد أربعة آلاف سنة من
الموت فى جب تحت الأرض .. وأمسكت بالحبوب أتفحصها بعينى
المجردة .. ثم بعدسة .

كانت تبدو ضامرة عجفاء ، لكن محتفظة بشكلها ..

ووضعف بعضاً منها فى جيبى .. على سبيل البركة ..

هذه حبوب أكل منها الفراعنة رغيفاً منذ أربعة آلاف سنة .

وغاب المعاون فى الحجرة الثانية الملاصقة للحجرة الدفن ، ثم
عاد يحمل لفافة من البردى ، بسطها أمامى فى فضول .. كانت
ممزقة فى أماكن .. ولكن الكتابة الهيروغليفية واضحة عليها ..

وقال المعاون إنها ليست البردية الوحيدة التى عثر عليها

فهناك برديات أخرى ..

وقد عثرت بالفعل فى الغرفة الثانية على عدة برديات مكتوبة
باللغة الهيروغليفية ، وهى اللغة الهيروغليفية المختزلة ..

والأسلحة والتروس والرماح ، تشير إلى رجل

هل كانت المقبرة لرجل وزوجته ، هذا ما تبين من متاعهما بعد أن سرقت ..

كانت أوراق البردي في حقيبتى تعدنى بالكثير ..

وأخذت مذكرات مختصرة بكل ما وجدته في المقبرة .

وعدت إلى منزلى أحتضن أوراقى ، وكأنى أحتضن عشيقته ..

وفى طريق العودة هطلت الأمطار بشدة .. وبلغت منزلى وثيابى تعصر عصراً . كأنها أسفنجة مكتظة .. وتقطر بالماء .. وفى تلك الليلة لم أنم .

بسطت أول بردية .. فى شوق ..

وكانت بردية عجيبة ..

كانت كلها أرقاماً ..

وأنا أعرف أن الفراعنة عرفوا الحساب والهندسة ، وبرعوا فى علوم الرياضة .. ولكنى لم أكن أتوقع أنهم بلغوا هذا القدر من الدقة والتفوق .

كانت أمامى أرقام عشرية ومعادلات وعمليات جمع وطرح وضرب الكسور .. ونظرية شبيهة بنظرية مربع الوتر للمثلث ، وكيف أنه يساوى فى المثلث القائم الزاوية مجموع المربعين

لقائمين على الصلعيين الآخرين .. ونظرية المتواليات الهندسية ..
أسماء بديهيات الهندسة الأقليدية .

والأرقام من الواحد (و ع) إلى المائة (شاع) إلى الألف (خا) إلى المليون (حح) ومضاعفاتها وكسورها .

روخت أى ثلث .. (رو معناها جزء وخت ثلاثة .. أى جزء من ثلاثة) ويكتبونها هكذا :



والربع ويكتبونه هكذا :



والجزء التربيعى ويكتبونه هكذا :



وتوقفت عند معادلة لم أفهمها ..

وضاعف من صعوبات القراءة أن البردية مكتوبة بلغة هيراطيقية ، أى هيروغليفية مختزلة ، وكانت بعض الاختزالات غير مفهومة وغير واضحة .
كان الكاتب أحد علماء الرياضة ، وكان يعرض طريقة حسابية دقيقة ، لقياس درجات الزوال الشمسى .

إنها إذن مذكرة فلكية ..

وأنا أعرف أن الفراعنة درسوا الفلك ، وعرفوا توقيت الفصول

والشهور .. وما زالت الشهور القبطية . تحفظ لنا التسمية الهير وغليفية
القديمة للشهور ..

فشهر توت هو تهوت بالهير وغليفية ..

وكيهك هو كاها كا بالهير وغليفية ..

وطوبة هو طوبيا بالهير وغليفية ..

وبرمودة هو براحاموت بالهير وغليفية ..

وبشنس هو باشنس بالهير وغليفية ..

وبؤونة هو باؤوني بالهير وغليفية ..

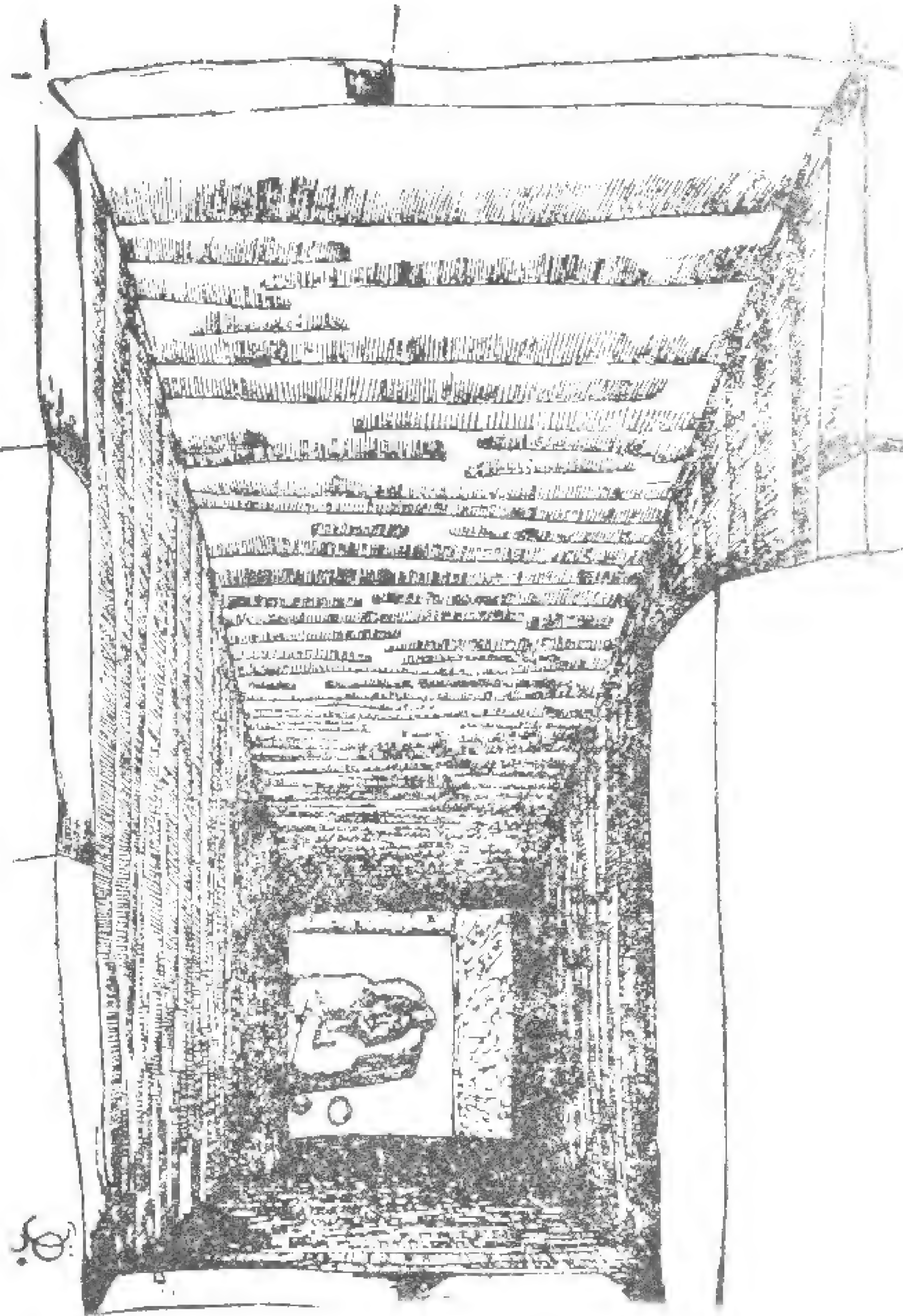
وأيب هو أيب بالهير وغليفية ..

واللغة القبطية تحفظ لنا النطق الهير وغليفي . وإن كانت مكتوبة
بحروف يونانية . . فكلمة « مس » بالقبطية معناها « يلد ابناً » .

وقد اكتشف شميليون أنها معنى رعسيس (رع يلد ابناً)
وفض رموز اللغة الهير وغليفية بمساعدة حجر رشيد ..

اللغة الهير وغليفية لم تمت بعد أربعة آلاف سنة . . بل ما زال
ينطقها الرهبان الأقباط في أديرتهم بحروف يونانية ..

إن ما أقرأه أمامي . هو علم حي . وليس علماً ميتاً بائداً ..



ومن يدري أية نظريات جديدة أو قديمة تختفي وراء هذه
المعادلات التي لا أعرف لها قراءة ..

وكان الوقت يمضي وأنا أجمع حولي القواميس ..
ما وضع للغة الهيروغليفية من قواميس .. وكل ما قيل في فقه
خطوطها .. الخط الهيراطيقي والديموطيقي والكرسيني .. وأقاربها
بالمفردات القبطية .. وأحاول أن أخرج بمعنى دون جدوى

كان عقلي قد تحول إلى جدار أصم مصمت لا ينفذ منه نور
من فرط التعب ..

وفكرت أن أدع بردية الفلك جانباً .. وأتناول بردية أخرى
على سبيل التغير ، ربما استطعت أن أنشط ذهني .

وتناولت البردية الثانية ..

وبسطتها أمامي ..

كانت عن فن التحنيط عند الفراعنة ..

لغز الألغاز الذي حير الباحثين والمؤرخين .

وتيقظت كل حواسي ، كأني وضعت رأسي تحت صنوبر
ماء بارد ..

كانت البردية تتناول بالتفصيل بدءاً واحداً من بنود التحنيط ،
هو الهند الأخير . وهو لف المومياء الخنطة بشرائح الكتان المغموسة
بالصمغ . طبقة بعد طبقة . حتى تبلغ ١٦ طبقة من الضمادات ..
وكان بها وصف شامل لصلوات الكاهن المختص بالتضميد وهو
يقرأ الشعائر والتعاويذ السحرية عند تضميد كل عضو . ليساعده
على العودة حياً .. فإذا بدأ بتضميد الرأس . مسحها بالزيت .
وهو يقرأ .. « الآن ثبت رأسك فوق رقبتك . وشد أنوبيس
عظامك . ووهب جسمك القوى . فلن يصيبه البلى » .. فإذا شرع
بضميد الساقين قال : « والآن أزلت عنك عجزك عن الحركة ..
إنك تقف بنفسك على قدميك . وتمشي كما شئت تماماً . مثلاً
كنت تفعل وأنت على قيد الحياة » ..

وتنتهي البردية بترتيل الكاهن للمحتوف ..

إنك تعيش ثانية .. فلقد رددت إليك الحياة إلى الأبد ..
وعاد شبابك كأجمل ما كان ..

ولم أجد بالبردية وصفاً لمراحل التحنيط وعملياتها . كما كنت
أتوقع .

وظننت أن البردية هي واحدة من عدة برديات تناول في التحنيط .. ولكنني وجدت أنها البردية الوحيدة .

وكانت البردية التالية عن الطب والجراحة

وكانت فيها معلومات عجيبة عن تقدم الطب في ذلك العصر

في مذكرة عن الجروح ، روت البردية كيف كانت الجروح النظيفة تعالج بالخياطة والأربطة اللاصقة وبالحم الطري أول يوم ثم بالأعشاب القابضة والعسل لإيقاف النزيف .

وفي مذكرة عن الحمى ، وجدت هذه النصيحة :

إذا أصيب الجسم بالحمى وحدثت به تقلصات .. وإذا وجدت وجه المريض قد غطاه العرق والزرير ، ونفرت عروق رقبته وتصلبت أسنانه ، وازرق وجهه ، وانقبض فيه ، والتوى حاجباه ، وبدا وكأنه يبكي .. فقل .. هذا مرض لا أقدر له على شيء ..

وفي مذكرة عن الكسور ..

إذا تفحصت رجلاً مصاباً بكسر في الترقوة ، ووجدت بها قصراً .. فقل .. هذا مرض سأعالجه ، واطرح الرجل على ظهره وضع بين لوحيه شيئاً ملفوفاً ، حتى يبتعد جزءا ترقوته ، ويرجع الكسر إلى موضعه .. وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على

الجانب الداخلي من ذراعه . وهو نفس العلاج الذي يعالج به الجراحون كسر الترقوة إلى الآن .

والظاهر أنهم لم يجدوا علاجاً للزكام .. وكان حالهم فيه كحالنا .. فقد قرأت هذه التعزيمه لطرد الزكام مكتوبة في البردية :

انصرف يا ابن الزكام ، الذي يكسر العظام ، ويهشم الجمجمة ، وينخر المخ ، ويصب المرض في فتحات الرأس السبع .. لقد أحضرت لك جرعة خاصة ضدك ..

أما الجرعة فمواد مركبة من لبن امرأة وضعت مولوداً ذكراً ، ومن عصير نبات ، لم أعرف نوعه ..

والأغلب أنها جرعة ملطفة لالتهابات الزور .

وفي أمراض العيون قرأت هذه الوصفات :

لعلاج التهاب الجفون ، نقط من الصبر ، وسلفات النحاس ، (التوتيا الزرقاء) تقطر في العين بواسطة ريشة نسر .

وفي مرض الشعرة ..

نصحوا بانتزاعها ، ووضع مرهم من دم الخفاش ..

وللرمد الحبيبي ..

الكحل ، وسلفات النحاس ، وكبريتات الأنثيمون ..

وصادت في البردية أكثر من ثلاثين صنفاً من الأعشاب
والنباتات ، والمواد المعدنية ، التي توصف للأمراض .. وبعضها
أسمع عليه مثل البابونج (لطررد الديدان) ، والقرطم (لعلاج
الرمم) ، والكولشيك والخردل واللفاح والمر والعفص وجوزة
الطيب وحب البركة والأفيون والسكران والحشيش وبصل النعنع
وشعر الجن والمانيزيا والزنجار وأملاح الحديد والنحاس والرصاص
والأنثيمون ..

وقرأت عن ألوان من التخصص عجيبة .. مثل التخصص في
تحضير الحقن الشرجية .. ويسمون القائم بها .. راعى الشرح ..
هذا عدا التخصصات العادية في أمراض النساء .. وأمراض العيون
والكسور .. والجروح .. والجروح .. والأورام .. والأسنان ..

وفي البردية وصف دقيق للذبحة الصدرية :

إذا فحصت مريضاً يشكو من آلام في صدره وذراعه وناحية
من معدته .. فقل .. هذا مرض خطير .. والموت يهدده ..

وكانت هناك ملاحظات دقيقة عن تشخيص الأورام باختبارها
والدق عليها بالأصبع ..

كنت أمام طبيب كبير وعالم بالفلك والهندسة والحساب
والتحنيط .

من يكون .. ؟

هل هو أمحوتب .. الطبيب المهندس العالم ، أيام الملك زوسر ،
أول ملوك الأسرة الثالثة ، صاحب هرم سقارة المدرج .. والذي
قد أنا أنه هو الذي أشرف على بناء الهرم المدرج ووضع تصميمه ؟
ولكني لم أجده له تمثالا واحداً ، ولا رسماً ، ولا اسماً محفوراً
في المقبرة ..

ولم يرد ذكره مرة واحدة في البرديات ..

أبكون السبب أن المقبرة ليست مقبرته ، وأنه منقول إليها بعد
نهب مقبرته الأصلية ..

عدت إلى الكتب التي كتبت عن أمحوتب .

وظللت أقرأ حتى الصباح حينما ثقلت أجفاني من التعب وكنت
ما زلت أفكر في أمحوتب ، وفي التحنيط ، وفي علاقة أمحوتب
بالتحنيط وبالطب وبالفلك ، وانطبقت أجفاني ، وذهني ما يزال
مشغولاً ..

* * *

وفي ما يشبه الحلم ..

أقول ما يشبه الحلم لأنني أعتقد أنني لم أكن نائماً .. وإنما كنت
في حالة استرخاء شديد ، وشبه غيبوبة من التعب ..

رأيت ما يشبه أمحوتب في ثيابه الفرعونية .

وحينما اقترب منى ، خيل إلى أن وجهه يلتبس على بوجه آخر
أعرفه ، وكان المنزر الفرعوني الذى يضعه حول خصره ، يشبه
إزاراً آخر ، كان يضعه رجل آخر نصف عريان مثل هذا الرجا

ودقت فى وجهه ..

نعم إنه البراهما واجيسوارا ، بعينه ، فى ثياب فرعونية
ومشية فرعونية .. وعلى وجهه ذلك الجلال الذى كان على وجه
أمحوتب القديم ..

وابتسم البراهما .. أولعله أمحوتب .. لا أدري ..

وسمعه يقول :

— أنا أعرف ما يشغلك .. أنت تريد أن تقرأ بقية البرديات
التي كتبتها عن التحنيط .. أنت تريد أن تعرف سر هذا الفن القديم .

قلت وأنا أرتجف .

— نعم ..

— ولكنه لم يعد سرّاً .. ولم يعد فناً .. وليس جديراً به
لهالة التي خلقتموها حوله .. حينما كنا نقوم به فى الماضى
تركه للمنبوذ من أخط الفئات الشعبية لمارسه ..

— إن كل ما أتمناه هو أن أعرف ماذا كانت تلك الفئات
ة ، التي تقوم بالتحنيط ، تفعل ؟ ..

— كان التحنيط بكافة عملياته يحتاج إلى سبعين يوماً ، يردد
أثناءها الكهنة الصلوات ، ويشرفون على المراسيم والطقوس ، وقد
ارتدوا أقنعة ، على هيئة رأس ابن آوى ، تمثل الإله أنوبيس ، وهو
إله الموتى عندنا ..

وكان المخطط يبدأ عمله بتفريغ الجمجمة ، وكان هذا يحتاج
إلى معرفة دقيقة بتشريخ الجمجمة ، لأنه كان يقوم بهذه العملية
بإدخال خطاف معدنى . عن طريق الأنف ، يخترق قاع الجمجمة ،
وينفذ إلى تجويفها .. ثم يدير هذا الخطاف داخل الرأس ، حتى يهرس
الجمجمة . ويحوله إلى هريسة . يفرغها مرة أخرى من الطريق نفسه ..

وبعد ذلك ، كانوا يفرغون البطن من خلال فتحة من الجانب
الأيسر ..

ويستخدم المخطون فى ذلك سكيناً من الحجر الصوان ، وكانوا
يفرغون البطن والصدر من أحشائهما ومحتوياتهما ، ماعدا القلب
يتركونه فى مكانه موصولاً بشرايينه ، والكلية كانوا يتركونها فى
مكانها لاصقة بالظهر .. وإذا حدث وانتزع القلب أو إحدى
الكليتين بطريق الخطأ كان يتعين إعادتها إلى مكانها .. وقد كان
هذا ضرورياً لاستمرار الحياة ..

وكان تجويف البطن والصدر يحشى بعد ذلك بالكثبان المشبع
بالمواد العطرية والصمغ والنظرون .

أما الأمعاء فكانت تملأ فى العادة بالمر والينسون والبصل

بعد غسلها بنبيد البلح والمواد العطرية ، ثم تلف بالضمادات وتحفظ
في أوعية خاصة ..

وكانت فتحة البطن تخاط بعد ذلك ، أو تسد بالشمع المذاب
كما كانت تسد فتحات الأنف والفم والأذنين والعينين بالماء
نفسها ..

ويأتى بعد ذلك دور التجفيف ، وهو أهم الخطوات لحفظ
الجسم وصيانتة ، وكنا نستخدم في ذلك ملح النظرون ، وهو ملح
طبيعى ، من خصائصه أنه يمتص الدهن والرطوبة ..

وكان ملح النظرون ، بالإضافة إلى هذا ، ملح مقدس عندنا
وكان يمزج بالبخور ، ويغسل به الفم ، أثناء الطقوس الدينية .

ولما كان الجلد يتسلخ ، والأظافر تتساقط غالباً أثناء التجفيف
بالنظرون ، فقد كان لزاماً على المحنط أن يحيط طرف كل أصبع
بكستبان من الذهب ، أو المعدن ، ليضمن بقاء الظفر في موضعه .

وكان يغمس الجثة عمودية حتى العنق ، في أوان كبيرة مليئة
بالنظرون ، بحيث يبرز الرأس فوق لحافة ، وبذلك لا يتسلخ
ولا يتشوه بالملح .

وبعد الانتهاء من التجفيف ، كان الجسم يرفع من النظرون
ويغسل بمحلول من الملح نفسه ، مضافاً إليه الزيوت العطرية . أما
الأصابع فكانت تصبغ بالحناء ، والفجوات الناتجة عن تحلل

المضلات في أطراف الجسم . كانت تحشى بفسانة الكتان ، أو
بشارة الخشب والرمل . حتى تعود إلى سابق مظهرها الطبيعى ..
وبعد ذلك تدهن المومياء بالصمغ السائل .

وكانت العمليات الأخيرة تجري والجسم ممدود على مناضد
حرسية . تشبه مناضد التشريح ، مجهزة ببالوعات أسفلها ، لصرف
السوائل الزائدة .. وكل منضدة عليها كتلتان مستعرضتان من
الخشب . يوضع فوقهما الجسم مرتفعاً عن السطح ، حتى يتمكن
الكهنة المختصون بالتضميد ، ولف الأربطة ، من تأدية عملهم
بحرية حول الجسم .. وكانت هذه الأربطة تغمس في الصمغ وتلف
في طبقات متعددة حول المومياء .. بينما الكهنة يقرءون الصلوات
والتعاوين التي تطمئن كل عضو على رده الحياة إليه ..

وبعد اكتمال العملية كانوا يجمعون كل ما تبقى من المواد
والأربطة الكتانية المتسخة . والأوعية الفارغة . ويودعونها في ركن
من القبر أو حفرة قريبة ..

بهذا كانت تنتهى عملية التحنيط . التي خلقت حولها كل هذه
هالة من السرية ..

أتراها كانت فناً جديراً بكل هذه المبالغة !!!

وأيّن يكون إذن فن التحنيط ، من فن النحت ، والموسيقى ،

والمعمار ، وعلوم الهندسة ، والطب ، والفلك ، والرياضيات

يبدو أن خيالكم ذهب بكم بعيداً ..

وسكت .. ونظر إلى مبتسماً ..

وهتفت في حشجة :

— ولكن من أنت .. إني أعرفك .. أعرفك .. أنت البراهما
لقد لقيتك من قبل .. وجلست إليك .

— منذ أربعة آلاف عام .. ربما .

أمحوتب .. البراهما .. مستحيل .

أو الاثنان معاً . لم لا ..

مستحيل ..

وتزاحمت الكلمات في فمي .. وكنت أريد أن أسأله عن الطب
على أيامه ، وعن الفلك وعن السحر ، وعن الحياة الأخرى ،
ولكنني كنت أتكلم ، فلا تخرج من فمي ألفاظ .. إنما يخرج هواء ..

وكان قد بدأ يعطيني ظهره وينصرف ..

حاولت أن أصرخ لأوقفه ، ولكن صراخي كان يخرج من فمي
هواء لا صوت له .

— ٨٨ —

كان هو البراهما ذاته في مشيته وجلاله .. ولكن كيف ..

كيف .. ؟

شعرت أنني أختنق برغبة حادة لا أستطيع أن أحققها ..

تبقضت وأنا أعاني ألماً عظيماً في حلقى وصدرى ، وكأني كنت
أجرب وأهت لعدة ساعات ..

وكنت ما زلت منكفئاً على مائدتي وأمامي البردية الأخيرة ..

وما أن تمألكت حواسي حتى أسرع أدون في عجلة ماسمعه
عن عمليات التحنيط في حلمي ..

وبحثت عن مرجع لهيرودوت .. لأقرأ ما قاله عن التحنيط ..
وأراجع عليه ماسمعه في منامي ..

وكانت مفاجأة حينما اكتشف أن أغلب ماسمعه مكتوباً بنصه .
في رواية هيرودوت عن التحنيط .. وهي الرواية التي جرى
العرف على تكذيبها ..

ومن هنا كان كلام أمحوتب .. إن فن التحنيط لم يعد فيه
شيء .. وأن ما خالفناه حوله ليس إلا هالة من المبالغات ..

وكنت أفكر في أمحوتب الذي رأيته في المنام ..

هل هو أمحوتب حقاً ؟ ولماذا يقول أنه أمحوتب والبراهما في
نفس الوقت .

كيف يكون هو نفسه ، وهو الآخر في نفس الوقت .

كيف أكون أنا نفسي ، وأنا الآخر في نفس اللحظة .

وكيف يتعاصر الماضي والحاضر . . أم أنى أهذى .

أم أن انشغالى الشديد ، هو الذى صور لى كل هذه الرؤى .

وقراءاتى فى هيرودوت هى التى أعادت نفسها على لسان هذه
الأشباح التى توهمتها ..

كان نوماً كأنه الموت ..

وكأنما انسدت عدة أستار سوداء بعضها فوق بعض أمام

الرؤية .

وكأنما ثقلت الرأس ، فإذا هى جبل من حديد ..

وكأنما ذابت الأطراف فأصبحت عدماً ..

ولكن ثمة حياة ظلت هناك تحت هذا العدم .. ثمة وجود .

فأنا موجود وسط هذه البحار الممتدة من الظلمة والسكون .

أنا موجود تحت الردم .

أنا هنا ..

فى أبيدوس .

أنا فى أبيدوس .. نعم ؟

وأنا أتبين المكان حولي جيداً .

إنه محفل هائل .. وهناك زينات أمام المعبد .. والملك والملكة
جاءا محمولين على محفتين ملكيتين .. وهناك خلق كثيرون قد
خروا راکعين حينما ظهر الملك .

الملكة تبسم .. أنا أعرفها .. إنها نفرتارى ، والملك هو أحمنس .
والكهنة يروحون ويحيثون بملابس أرجوانية ذات أسلحة
واسعة .

وهذا هو « نون محب » حكيم القصر .

ونون محب يميل على هامساً وهو يشير إلى أحد الكهنة .

— هذا هو الكاهن الذى سيمثل دور أوزيريس .. وهذه
هى الساحرة التى ستمثل دور إيزيس .. وهذا هو ابنها حور ..
إنك لن تستمتع بالمرحىة إلا إذا عرفت قصة الآلهة عندنا ..

وأخذنى نون محب ، وراح يتمشى بى تحت كرمه ذات تعاريش
كثيفة .. وكانت استعدادات التمثيل تجرى على قدم وساق وراء
المنصة الكبيرة على شاطئ النيل ونحن نتحدث .

قال نون محب .

— تقول أدياننا أن الكون بدأ على صورة فضاء أزلى بلا

حركة ، ولا حياة ، ثم قام فيه رع إله الشمس ، الذى خلق نفسه
بنفسه .. ومن فم رع ، ومن أنفاسه ، ولد شو ، وتفنوت ، الذين
تزاوجا لينجبا نوت ربة السماء ، وجب ، إله الأرض ، وتزوج
جب ونوت ، وأنجبا الأخوة الأربعة : إيزيس ، وأوزيريس . وست ،
ونفتيس . وهكذا تألف التاسوع الإلهى الذى يحكم الكون .

ثم بدأ الصراع بين الآلهة ، فقتل ست ، أخاه أوزيريس ومزقه
إرباً وألقى بأشلائه فى الجهات الأربع ، واستولى على ملكه .
وأشار إلى المسرح :

— ها هو العرض قد بدأ .. وها هو « ست » ملفعاً بعباءته
السوداء ، وعلى وجهه قناع مفزع ، يتسلل إلى المسرح ، ويقتل
أوزيريس .

— هل هو يمزقه بالفعل .

— لا .. إنما هى براعة التمثيل ، هى التى جعلتك تظن أنه
مزقه ، وما هذه الأشلاء التى تطايرت فى الفضاء إلا أشلاء دمية .

وها هى إيزيس تظهر على المسرح ثائرة باكية ، تجمع أشلاء
أخيها وزوجها القتيل أوزيريس .. وها هى تقرأ الصلوات
والتعاويذ ، وتضم الأشلاء ، بعضها إلى بعض ، ثم تحيىها بالسحر ،
فتعود إلى أصلها ..

والأناشيد التى تسمعها ، هى أناشيد الفرح بيعث أوزيريس ،
يرتلها الكهنة .

ولم يزل وأوزيريس الآن ، في خيمة الحب ، يتبادلان
وحواريات المعبد يرقصن ويرتلن :

ويشركون في التمثيل ، وقد انضم الأخيار منهم إلى حور والأشرار
إلى ست ، في المعركة الأزلية بين الخير والشر .

وظل ساكناً مدة . ولم يرد . وقد ظهرت عليه علامات التفكير
قلت :

-- هل تصدق هذه الأكاذيب الساذجة ؟

تجيب الحكيم :

— وهل تكون كاذباً . حينما تقول حبيبتي التي تحبها . .
حبيبتي . . يا حبة القلب . . يا واهبة الحياة والسعادة . . يا بلبلًا
مغرداً على فئ . هل تكون حبيبتي بلبلًا حقاً . إن الأديان أشعار ،
بعضها شعر جيد ، وبعضها شعر رديء . . ولكنها دائماً تدل على
شيء في القلب . . شيء صادق .

ونخيل إلى أني سمعت هذه النبرات من قبل .

ونظرت إلى ملامح الرجل الذي يكلمني . . وكدت اسمع
أنى أعرفه . . وأنى قابله . . وأنى جلست إليه ، واستمعت إلى
حكيمته . .

نعم . . إنه البراهما .

براهما واجيسوارا مرة أخرى .

قال البراهما . أو نون محب ، لا أدري .

— أما إيريس . وأوزيريس ، وحور ، وست ، فما هي إلا أسماء

نتعرف بها على الموجودات . . والشعر والخير موجودان . . ليس
كذلك . .

وهل يدل اسمي على شيء . .

أبدأ . .

إنها مجرد ألفاظ . . مثيرة للضحك ، مثل إيريس ، وأوزيريس .

لماذا لا تضحك على اسمك ؟

وناولني الفطيرة قائلاً :

— كل هذه الفطيرة . . صدقني لن يشبع الكلام جوعك . .
ولو ظللنا نتكلم حتى الصباح فسوف تظل محتاجاً إلى الفطيرة .

قلت وأنا أقضم الفطيرة :

على أي حال ، كان هنا كثيرون من مواطنيك يشاركونني
انشك في دياناتكم ، بدليل مقابرهم التي سرقت . وحرقت ما بها من
موميات ، وحطمت ما بها من تماثيل . . وكان اللصوص في جميع
الأحوال هم الفراعنة أنفسهم ، وتابوت خوفو الفارغ ، وتماثيله
المخضمة في هرمه العظيم . تشهد على ذلك .

قال في هدوء :

— إن التابوت الفارغ في هرم خوفو . ليس هو تابوت خوفو ،
والنمرات التي اكتشفها اللصوص ، كانت كلها ممرات وهمية .

وظل ساكناً مدة . ولم يرد . وقد ظهرت عليه علامات التفكير
قلت :

-- هل تصدق هذه الأكاذيب الساذجة ؟

تجيب الحكيم :

— وهل تكون كاذباً . حينما تقول حبيبتي التي تحبها . .
حبيبتي . . يا حبة القلب . . يا واهبة الحياة والسعادة . . يا بلبل
مغرداً على فئ . هل تكون حبيبتي بلبل حقاً . إن الأديان أشعار ،
بعضها شعر جيد ، وبعضها شعر رديء . . ولكنها دائماً تدل على
شيء في القلب . . شيء صادق .

ونخيل إلى أني سمعت هذه النبرات من قبل .

ونظرت إلى ملامح الرجل الذي يكلمني . . وكدت اسمع
أنى أعرفه . . وأنى قابله . . وأنى جلست إليه ، واستمعت إلى
حكيمته . .

نعم . . إنه البراهما .

براهما واجيسوارا مرة أخرى .

قال البراهما . أو نون محب ، لا أدري .

— أما إيريس . وأوزيريس ، وهور ، وست ، فما هي إلا أسماء

نتعرف بها على الموجودات . . والشعر والخير موجودان . . ليس
كذلك . .

وهل يدل اسمي على شيء . .

أبدأ . .

إنها مجرد ألفاظ . . مثيرة للضحك ، مثل إيريس ، وأوزيريس .

لماذا لا تضحك على اسمك ؟

وناولني الفطيرة قائلاً :

— كل هذه الفطيرة . . صدقتي لن يشبع الكلام جوعك . .
ولو ظللنا نتكلم حتى الصباح فسوف تظل محتاجاً إلى الفطيرة .

قلت وأنا أقضم الفطيرة :

على أي حال ، كان هنا كثيرون من مواطنيك يشاركونني
انشك في دياناتكم . بدليل مقابرهم التي سرقت . وحرقت ما بها من
موميات . وحطمت ما بها من تماثيل . . وكان اللصوص في جميع
الأحوال هم الفراعنة أنفسهم ، وتابوت خوفو الفارغ ، وتماثيله
المحطمة في هرمه العظيم . تشهد على ذلك .

قال في هدوء :

— إن التابوت الفارغ في هرم خوفو . ليس هو تابوت خوفو ،
والنمرات التي اكتشفها اللصوص ، كانت كلها ممرات وهمية .

مومياء خوفو وتابوته وتحفه ، مازالت سليمة في مكانها بالهرم ،
لم تصل إليها يد . . والتابوت الفارغ ، وضع للتضليل .

وكان هذا الكلام قنبلة بالنسبة لى كمهندس آثار .

هتفت فى فضول :

— وأين إذن توجد غرفة الدفن الحقيقية ، إذا كان التابوت
الذى عثر عليه تابوتاً وهمياً .

— أسفل بئر سرية لم تكتشف بعد .

— وكيف يمكن الوصول إلى تلك البئر ؟

ونظر إلى نون محب فى استغراب .

ولم يستطع أن يخفى دهشته لفضولى الزائد ، فقال ضاحكاً :

— هل تريد أن تشترك مع اللصوص فى حملة أخرى .

— أنا . . لا . . لا . . إنما هو مجرد فضول للحقيقة .

— إن المكان لا يعرفه إلا الكاهن الأكبر فى معبد الشمس ،

وأردف بعد فترة صمت :

وهناك أقوال أخرى بأن المكان مكتوب فى بردية ، فى
مقبرة المهندس «حم أيون» الذى بنى الهرم . . وقد سمعت كاهناً من



— ومن يدري : ربما كان الزمن هو الأبد بالفعل ، وربما كان
الزمن في الحقيقة يتوقف على الطريقة التي نعيش بها .

— الطريقة التي نعيش بها ؟ !

وأطرقت ساعهما لحظة : ثم قلت وأنا أفكر :

— إني أعجب ! كيف يمكن أن تكون أنت نفسك . وأنت

الآخر . . . اثنان معاً . . . بل ثلاثة ؟ . . .

— بل نحن واحد .

قالت مبتسماً ابتسامة غامضة .

ونظرت إليه . . . كان هو البراهما نفسه . . . الرجل الذي عاش

كل الأسماء والأزمان ، واحتوى الأبد كله في داخله .

وكان الكورس والممثلون قد بدأوا يتقاطرون على المسرح

ويستعدون لأداء أدوارهم : وكان الكهنة يرتدون أثوابهم الكهنوتية

. . . ويضعون الأقنعة المربعة على وجوههم . . . ولكن المنظر كان

يبهت تدريجياً . . . والأشكال كانت تذوب وتختلط في سبيكة من النور

المبهم تضايق العين . . . والموسيقى كانت تتحول إلى ضجة . . .

وكنت أشعر بالضيق الشديد . . . وأتقلب في مكاني . . . وفتحت

عيني لأجد أن الشمس في عيني . . . والغرفة نهار .

وينظرة سريعة إلى ساعة يدي ، اكتشفت أنني قد نمت أكثر

من ثلاثين ساعة متصلة .

المرتلين في معبد الشمس يقول : إن الباب الحقيقي يوجد على نقطة
ما في الضلع الشرقي للهرم . . . والحقيقة كما قلت لا يعرفها أحد .

— وهل يقول كهنتكم أيضاً أن « أبو الهول » تحته غرفة
سرية ؟

— لا . . . إن أبو الهول ليس مقبرة . . . إنه تمثال الإله آتوم

. . . وهو نفسه إله الشمس رع ، في رحلته في عالم الظلمات كل مساء .

وقد تحول إلى أسد ليهزم أعداءه من الجن والمردة من سكان عالم

الظلمات . . . والتمثال منحوت في كتلة مصمتة من الصخر ، وأمامه

معبد عظيم . . . وكان الكنعانيون يعبدونه ، على أنه إلههم « حورون »

أو « حول » ومن هنا جاء لكم اسمه « بو حول » أو « أبو الهول » .

— أنت أستاذ عظيم في التاريخ .

— أشكرك .

— ولكني لا أصدق كيف تكون نون محب ، وأنت تعرف

أشياء لم ترها في عصرك . . . وكأنك عشت في كل العصور .

— حقاً . . . إنه لشيء رائع أن يعيش الواحد منا في كل

العصور .

— لا أفهم كيف يمكن أن تعيش في الماضي وفي الحاضر في نفس

الوقت ، وكأنما كل اللحظات قد تعاصرت بين يديك ، وكأنما

الزمن عندك هو الأبد .

وقمت من مكاني كأني أقوم من قبر . . .

وكانت أصدااء الحلم الغريب ما زالت تطاردني . . .

الهرم الأكبر . . . والغرفة السرية التي لم تكتشف . . .

كلام لا يمكن أن يصدق . . . هديان .

وكتبت اسمهم ، حم أيون ، قبل أن أنساه .

وتناولت فطورى بسرعة . . .

واكتشفت أنني نسيت جاكيتي في البلكونة . وأن المطر أغرقها ،

وأنها لم تعد صالحة للاستعمال . . . كان المطر قد ظل يطارد هذه

الجاكيت منذ كنت في المقابر من يومين . حتى ساعات قبل طلوع

الشمس حتى أحالها إلى شيء كالإشكير .

وبينما كنت أنقل محتوياتها إلى الجاكيت الأخرى . لاحظت أن

المنديل لم يعد صالحاً هو الآخر . . .

وبينما كنت اتفحصه بنظرة قبل أن ألقيه للغسيل . لاحظت

عدداً من حبات القمح التي جثت بها من مقبرة أمحوتب بين

طياته .

وكانت كل حبة قد انفلقت عن لبنة خضراء صغيرة . وحملت

في الحبات النباتية في ذهول .

بعد أربعة آلاف سنة . . .

بعد أربعة آلاف سنة . . . هل هذا شيء يصدق ؟؟ !

بعد أربعة آلاف سنة . . . تدب الحياة . . . ويقوم الجنين النائم

من تابوته ؟؟ ! ! !

كنت أفكر في « حم أيون » . . .

كان هدياناً . . . ولكن أي شيء لم يعد هدياناً ؟ ! !

لقد نبتت حبة القمح بعد موات أربعة آلاف عام في باطن

الأرض . . . وسبقت حقائق الواقع غرائب الخيال المجنح .

لم يعد هناك مستحيل .

كانت معلوماتي عن (حم أيون) أنه ابن سنفرو ، وأحد

إخوة خوفو ، وأحد الذين أشرفوا على بناء الهرم الأكبر في المرحلة

الأولى من بنائه . . . فقبرته مثل مقابر الأسرة الملكية ، لا بد موجودة

في الجبانة الملكية حول الهرم . . . والوصول إليها ليس أملاً بعيداً .

استخرجت إذناً بالحفر في الجبانة الملكية . . . وذهبت على رأس

فرقة من العمال إلى منطقة الهرم .

وبدأت بالطواف حول المقابر التي كشف عنها بالفعل ، وكانت

كلها مسروقة ولا وجود لشيء فيها سوى الجدران .

ثلاثة أهرامات صغيرة تحولت إلى ركام ، هي مقابر زوجات خوفو الثلاث ، تليها مقابر الوزراء ، وكبار رجال الدولة والكهنة . رسمت خطأ على امتدادها ، وأمرت بالحفر .

وبينما كان الحفر يجرى .. كنت أقرأ النقوش على كل جدار قائم ، وكل قطعة حجر ، وكل طلل ملقى على الرمال .. أبحث عن إشارة ، أو خبر عن « حم أيون » .

جلبت معي كل المراجع البردية التي ذكرت خوفو وهرمه .. وكل ما كتب من أساطير وقصص ، حول خوفو وأسرته . كنت أعلم أن الحفر سوف يستمر أياماً ..

وكانت السلوى الوحيدة أن أقطع الوقت في الحفر على طريقي .. في بطون الكتب .. وخوفو شخصية أسطورية في الأدب المصري القديم ، مثل عنتر عندنا .

ولهذا وجدت أكثر من مادة قصصية تدور حوله .

في بردية يعود تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة ، وجدت هذه القصة الغريبة عن مغاليق الهرم .

كان خوفو يريد دائماً أن يعرف سر مغاليق هيكل تحوت ، بصنع مغاليق تماثلها في هرمه .

وسمع خوفو عن الساحر العجوز « ددى » الذي يبلغ من العمر مائة سنة وعشراً ، ويأكل كل يوم خمسمائة رغيف ، ويشرب مائة إناء من الجعة ، ويأكل فخذ ثور ، ويجعل الأسد يسير خلفه وديعاً كالكلب ، ويعرف سر مغاليق هيكل تحوت .

وطلب خوفو من ابنه أن يسافر بنفسه ليحضر له ذلك الساحر .

وذهب الأمير الصغير إلى قرية سنفرو ، حيث يوجد الساحر .. وكان الأمير يجلس ممدداً على محفة من الأبنوس ، يحملها العبيد .. وعندما وصل إلى منزل الساحر ددى ، وجده نائماً على حصير أمام عتبة بيته ، واثنان من الخدم يدلكان له قدميه . ونهض ددى لاستقبال الأمير وحياء أحسن تحية .

وقال الأمير : إنه موفد من أبيه الملك ، ليدعوه إلى قصره ليتمتع بأحسن المآكل والمشارب .

قال ددى : في أمان .. في أمان يا حور ، يابن الملك الذي يحبه أبوه .

وذهب معه إلى شاطئ النهر ، حيث كانت السفن راسية في انتظاره .

وطلب ددى أن يخصصوا له سفينة لأجل عائلته ، وسفينة أخرى لأجل كتبه ومخطوطاته ، فخصص له الأمير السفينتين .

ولما وصل ددى إلى القصر ، استقبله خوفو في قاعة القصر الكبرى ، ذات الأعمدة ، وبادره قائلاً : لماذا لم أرك قبل الآن ؟

فأجابه الساحر : يأتى الإنسان عندما يدعى يا صاحب الجلالة .

قال جلالتة : هل صحيح ما قيل من أنك تستطيع أن تعيد رأساً مقطوعاً إلى مكانه ؟

فأجاب ددى : نعم أستطيع ذلك يا مولاي الملك .

فأمر خوفو بإحضار أحد المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام . ولكن ددى قال : إنه يفضل أن تكون التجربة على حيوان .

فأحضروا له أوزة وقطعوا رأسها ، ووضعوا جسمها في غرب القاعة ، ورأسها في شرقها ، وأخذ ددى يتلو سحره وتعاويذه ، فأخذت الأوزة تتحرك ، وكذلك رأسها حتى تلاقيا ، فركب الرأس في مكانه فوق الجسد وعادت الأوزة للحياة وأخذت تصبح وأعادوا التجربة مرة ثانية في بطة ، ثم في ثور ، فنجح في إحيائها .

ثم سأله خوفو : إذا كان يعرف سر مغاليق هيكل تحوت ؟

فأجاب ددى : بأنه لا يعرف سرها ولكنه يعرف مكانها .

فلما سأله عنها قال : إنها في صندوق من حجر الصوان في إحدى قاعات معبد الشمس ، وأنه لا يستطيع إحضارها .. ولا يقدر على ذلك سوى أكبر أطفال ثلاثة ، تحمل بهم امرأة اسمها ددت :

فلما سأل خوفو : ومن تكون ددت ؟

قال : إنها زوجة كاهن كبح في بلدة تسمى سخبو .

وتمضى القصة بعد ذلك : فتعرف منها أن الساحر نزل في ضيافة خوفو . . وأن خوفو رتب له يوماً ألف رغيف . ومائة إناء من الجعة . وثوراً كاملاً ، ومائة حزمة من الكرات .

وتعرف بعد ذلك ، أن ددت زوجة الكاهن في بلدة سخبو . قد حملت ووضعت أطفالها الثلاثة ، وأن الإلهات : إيزيس ، ونفتيس ، وسخت ، وحت ، هن اللاتي أولدنها . وأنهن تركزن لها في مكياج الشعير ثلاثة تيجان ذهبية . . . بشارة بأن الأطفال الثلاثة سوف يصبحون ملوكاً .

وتروى القصة بعد هذا . . . الأم ددت . بينما كانت في صومعة الغلال . سمعت غناء وموسيقى ورقصاً . . . وحينما تلفت : وجدت أن هذه الموسيقى صادرة من مكياج الشعير الموضوع في الركن . . . وحينما نظرت في المكياج وجدت تيجان الذهبية الثلاثة . وعرفت أنها لأطفالها . وأنهم سوف يصبحون ملوكاً . . . وأخفت الأم الخبر عن الجميع ، حتى لا يصل إلى علم خوفو . لأنها كانت تعلم خوفو يقتل كل طفل يعرف أنه سيتولى الملك من غير أطفاله .

وتقف القصة هنا ، لأن القصص موزقة ومفقودة .

ولكن الجزء الموجود من القصة يدل على ما كان يعانيه .

من قلق .. وعلى حرصه في أن يكون لهرمه مغاليق لا تفتح ولا يصل
إلى سرها أحد ، مثل مغاليق معبد تحوت .

كنت أقرأ في هذه البرديات ، حينما جاءني أحد العمال يهرول
فرحاً ، وفي يده لوح من الاردواز ، عليه كتابة هيروغليفية .
كانت الكتابة أشبه بتحية أو أغنية أو خطبة قيلت في الاحتفال
بتتويج أحد الملوك وكانت ترجمتها كالآتي :

ياله من يوم سعيد ، فالأرض والسماء مبهجان ، لأنك سيد
مصر العظيم .

لقد رجع الهاربون إلى مدنتهم ، وظهر أولئك الذين كانوا
مختبئين .

وأصبح الجائعون سعداء ، وقد شبع بطنهم ، وأصبح
الظالمون مرتوين .

ومن كان عارياً ، أصبح يرفل في الكتان الجميل ، ومن كان
، أسماً ، أصبح يرتدى أجمل الثياب .

وأطلق سراح من في السجون

أما الأراامل ، فقد تركن أبواب بيوتهن مفتوحة ، وصار يدخلها
يون .

وابتهجت السفن ، وهي فوق المحيط ، لأن البحر اختفى موجهه ،
وأخذت السفن تصل إلى الشاطئ ، وهي تسير بالرياح وبالمجاديف .
ولم يكن على اللوح إشارة إلى الملك المحتفل به ، أو إلى
الكاتب .

وذهبت مع العامل إلى المكان الذي اكتشف فيه اللوح ..
ولكني لم أجد مكاناً ، أو قبراً . أو مصطبة ، أو بناء من أى نوع ،
وإنما مجرد كومة من الرمل .
وأمرت بتركيز عمليات الحفر في هذه الكومة .

ووقفت على رأس العمال أختبر كل صغيرة وكبيرة تظهر على
أطراف معاولهم .

عثرت في الرديم على جبات من الخرز الأخضر ، وتمائيل
صغيرة ، ودمى من العاج ، وجعارين . وثلاثة ألواح أخرى ،
بها شروخ متعددة ، لكن كتابتها مقروعة .. وهي أغنيات غزل من
أخ لأخته ، ومن أخت لأخيها (كان الغزل والزواج بين الأخوات
أمراً مألوفاً في أيام الفراعنة ، وأكثر الملوك الفراعنة ، تزوجوا
أخواتهم ، وأخناتون تزوج ابنته) .

تقول الأخت لأخيها في الأغنية :

إلهي .. يا أخي . إنه لجميل أن أذهب إلى البحيرة لأغتسل
أمامك .

وأجعلك ترى جمالي ، وقد ارتديت ثوبي المصنوع من أجمل
الكتان الملكي عندما يبتل .

إني أغطس في الماء معك . ثم أعود إليك بسمكة حمراء ، وقد
استقرت جميلة بين أصابعي .. تعال وانظر إلى .
ويقول الفتى :

عندما أرى أختي آتية ، أفتح ذراعي لأعانقها ، فيبتهج قلبي في
مكانه مثل العصفور .

إذا عانقتها وفتحت لي ذراعيها ، أحس كأنما أصبحت مثل
شخص من بلاد بونت ، مضحك بالعطر .

فإذا قبلتها ، وفتحت لي شفتيها . أحس بأني قد انتشيت دون
أن أذوق الجعة .

ليتني كنت جاريتها التي تقوم على خدمتها حتى أرى لون
جسدها كله .

ليتني كنت غاسل ثيابها . ولو مدة شهر واحد ، لأغسل العطر
الذي في ثيابها .

ليتني كنت الخاتم الذي في أصبعها .

والسوار الذي في ذراعها .

والعقد الذي على صدرها .

وفي اللوح الثالث أغنية حب رقيقة كالماتى كالآتي :

ضياؤها ساطع وجلدها منير

جميلة العينين ، عندما تنظر
حلوة الشفتين ، عندما تفتحها لتتحدث

لا تنبس بكلمة ، لا حاجة لها

طويلة العنق ، جميلة الثدي

وشعرها أسود يلمع

ذراعها يفوق الذهب في طلاوته

أما أصابعها ، فمثل براعم اللوتس

ثقيلة الأرداف ، نحيلة الخصر

ينبئ ساقاها عن جمالها

وما أرشق قدمها عندما تسير

لقد سلبت روحى مع قبلتها

لأنها تجعل أعناق الرجل تنثنى

مستديرة نحوها إعجاباً عند قبلتها

ما أسعد الذى يلثم فيها

فإنه يصبح أقوى من كل الرجال

كنت أمام قبر شاعر أو أمير مولع بجمع المخطوطات
الغنائية .

* * *

لم يسفر الحفر طول النهار عن شيء جديد .. أخرجت المعاول
قناطير من الرمال .. ثم لا شيء .

كانت قطع الحجارة التى يعثر عليها مفتتة .

وتحت الحجارة كنا نجد تلالاً أخرى من الرمال .

وحينما كانت الشمس تغرب ، كان اليأس قد بلغ منى مبغله .

وكنت أدور فى مكانى مثل نحلة قطعوا رأسها .

كنت أفكر .. وأعصر دماغى .

وكل مكان فى رأسى أصبح مملوءاً بكلمة واحدة هى

« حم يون » .

حينما خرقت أذنى صرخة مدوية .

لند سقط أحد العمال فى حفرة .

وأسرعنا نحو العامل وانتشلناه ..

ونظرت فى المكان حيث انزلت قدميه وسط الرديم ..

وبدأتنا نزيل الرمال .

لم تكن حفرة .. وإنما كان بئراً ..

وكانت سلام البئر واضحة.

كانت تنزل درجة درجة ، إلى قرب القاع حيث تبرز
جوانب سقطة حجرية كبيرة ..

أخيراً ..

أصبحنا على بعد خطوات من غرفة الدفن

ونزلت الدرجات .. درجة .. درجة .. وقلبي ياق من
الانفعال .

• • •

وصلت إلى الدرجة الأخيرة في قاع البئر ، وكان قد سبقني
هناك بعض العمال .. وكانوا يعملون معاولهم في السقطة
الحجرية ..

وبمجهود قليل أمكن إزاحتها ..

وانكشفت الغرفة الصغيرة ذات السقف الواطئ أمامي ..

وكان هناك تابوت من الجرانيت في وسطها محفور عليه اسم
« حم أيون » .. وكان التابوت مغطى بغطائه ، ومنظره يبشر بأن
المومياء الراقدة بداخله لم تسرق ..

ورفعنا الغطاء الجرانيتي ، ونحن نتعلل بالآمال لنفاجأ ،
بالتابوت خاو على عروشه والجلثة مسروقة ..

المنظر المعتاد الذي يكسر القلب .. والذي يتكرر في كل مقابر
هذا العصر ..

أغلب الظن أن الهكسوس لم يبقوا حجراً على حجر في تلك
الأيام .. ولم يتركوا معبداً أو قبراً إلا خربوه ..

وكنيت أقرأ النقوش الهيروغليفية على الجدران ، وفيها يروى
حم أيون ، الأعمال التي قام بها .. كيف أنه قام على رأس بعثة
إلى جبل المغارة بسيناء لإحضار الفيروز والنحاس .. وكيف نقش
اسم أبيه الملك المعظم سليل الآلهة خنوم خوفو وى (الاسم الكامل
لخوفو .. وخنوم وهو الإله صانع البشر ، وهو يرسم دائماً على
جدران المعابد أمام عجلته الفخارية ، وهو يصنع مخلوقاته البشرية)
على مناجم النحاس (وجد الاسم محفوراً بالفعل في مناجم النحاس
بسيناء) .

ويروى حم أيون ، في مكان آخر ، كيف رأس بعثة إلى مدينة
جبيل بلبنان ، لإحضار الأخشاب .. وكيف بنى معبداً مصرياً في
جبيل ، لعبادة إله الشمس .

وكيف اشترك في بناء الهرم الأكبر ، وفي هندسة المعبد
الجنائزى أمامه ، وكيف رصف أرضية المعبد بحجر الدلوريت
الأسود المقطوع من محاجر الفيوم .

وكيف أنشأ جسراً ضخماً ، ينزل من الهضبة حيث الهرم إلى
الوادي حيث معبد الوادي الكبير ، ورصد الفنانين لزخرفته وتزيينه
باللوحات الجميلة (لم يكتشف المعبد ، ولا الجسر بعد ومكانه
بحسب الكلام يقع تحت نزلة السماء) وفي أسفل الكلام إشارة عن
تغيير في تصميم الغرف الداخلية بالهرم ، وتعديل في بناء مسالكه
وممراته .. لكن النقوش الهيروغليفية متآكلة ، والجدار محطم
بشكل يجعل القراءة مستحيلة .. لكن ما لفت نظري ، هو رسم

هرمي في أقصى الجدار ، وعلى ضلعه الأيمن (بالنسبة لوضع
الجدار والمقبرة يكون هو الضلع الشرقي) علامة ، ويبدو أن
" هـ شرح للنص المكتوب ..

وربما كان الكلام عن مدخل على الضلع الشرقي للهرم كما قال
نون محب ..

احتمال .. مجرد احتمال ..

ولكن بدون هذا الاحتمال يبدو وجود الرسم الهرمي غير
مفهوم إلا إذا كان حرفاً هيروغليفياً جديداً لا نعرفه في قواميسنا .
كنت منهمكاً في قراءة الكتابة الهيروغليفية ، حينما قال لي
العامل بجوارى أن هناك سرداب .

وكان العامل يطل من طاقة مستديرة في الجدار ..
وأسرعت إلى حيث يطل ، ووضعت عيني في الطاقة ، لأجد
تمثالا محطماً ، أغلب الظن أنه تمثال حم أيون نفسه .. وعلى مدى
ما ترى العين ، كان هناك سرداب طويل .

وكان لابد أن توسع الطاقة ، لندخل إلى السرداب ..

وكانت على جدران السرداب ، صلاة إلى حورس ، الذي
يرعى أجسام الموتى ، ليبدل الميت على طعامه ، ويعاونه على أن
يتغذى من قربانه ، ويتنفس الهواء الطلق ، حتى لا يختنق في
صندوقه ، ويجموع ويأكل من برازه ، ويشرب من بوله .

وعلى جانبي السرداب ، تراصت صفوف من أواني الجع
الفخارية .. وفي أحد الأركان إناء كبير ، فيه عدد من اللقافات
البردية .. الكنز الثمين الذي كنت أبحث عنه ..

* * *

وحيثما عدت إلى مكاني في مساء ذلك اليوم ، كانت هناك
أحلام كثيرة تراودني ..

أن خرافة « حم أيون » لم تعد خرافة ..

ونقوش المقبرة أثبتت أن تصميم الغرف الداخلية للهرم قد
أجرى فيه تعديلات ، والمسالك والممرات السرية ، رسمت لها
مداخل جديدة ..

والعلامة على الضلع الشرقي للشكل الهرمي المرسوم ، لا بد
أنها تدل على شيء ..

كنت أقرب بسرعة من السر ..

وبسطت البرديات أمامي ..

كانت مجموعة من الوصايا ..

مررت عليها بسرعة بحثاً عن هدي ..

ولكن لم أجد سوى وصايا ، من السطر الأول للأخير ..

والظاهر أنها كانت الوصايا التي حفظها حم أيون عن أستاذه
.. أو أنها جزء من كتاب الوصايا الذي كان يعلمه المعلمون في
ذلك العصر ..

تقول البرديات :

احذر من الاقتراب من النساء في أي مكان تدخله ، فقد
انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك .. إنها لحظة
قصيرة كاللحم ، والموت جزاء الاستمتاع بها .

لقد سمعت بأنك تجرى وراء ملذاتك ، وتذهب من شارع إلى
شارع . حيث تفوح رائحة الجعة من فمك ..

إن الجعة تنفر الناس منك ، وتؤدي بك إلى الهلاك ، وتجعلك
كدفة مكسورة في سفينة ، لا تفيد في التوجيه إلى يمين أو يسار ..

لا يدخلك الغرور بسبب علمك ، ولا تختال وتنفخ أوداجك ،
لأنك رجل عالم .. استشر الجاهل ، كما تستشير العالم ، فما من أحد
استطاع أن يصل إلى آخر حدود الفن ، ولا يوجد الفنان الذي
يبلغ الكمال في إجادته ..

الحديث الممتع ، أشد ندرة من الحجر الأخضر اللون
ومع ذلك . فربما تجده لدى الأرقاء والجواري اللاتي يجلسن
الرحى ..

هدي من روع الباكي ، ولا تنظم الأرملة ، ولا تحزن ماناً
من ثروة أبيه ، ولا تطرد موظفاً من عمله ، وكن على من
مظلوم ، يضمن الانتقام من ظالمه ..

لا تقتل ، فإن ذلك لن يكون ذا فائدة ، بل عاقب بالضرب
والحبس ، فإن ذلك يقيم دعائم البلاد ، اللهم إلا من يثور عليك .
وتتضح لك مقاصده ، فإن الله يعلم خائنة القلب . والله هو الذي
يعاقب بالموت ..

لا تقتل رجلاً إذا كنت تعرف جميل مزاياه .

ولا تقتل رجلاً كنت تتلو معه الكتابات (يعني زميلك في
الدراسة) ..

لا يوجد شجاع في ظلام الليل ، ولا يمكن لإنسان أن يحارب
وهو وحيد ..

لا أصدقاء لأحد في يوم الأسى .

إذا كان لسانك هو دفة سفينتك ، فإن إله الكون هو ربانها ..

إن الكلام يتدفق بسرعة عندما يحس القلب بالأذى ، وهو
أسرع من الشلال عند مخرج المياه ، فاحذر من الاندفاع ساعة
الغضب ..

لا تقل « ليست لي خطيئة » وتشغل نفسك بالتفكير في
خطايا الناس .. فالله وحده هو المختص بالحكم في خطايا الناس وهو
الذي ختم على أقدارهم بأصبعه ..

لا ترقد في الليل خائفاً مما يأتي به الغد ، فالله يحقق دائماً
ما يريد ..

لا تتخذ الرجل سريع الغضب لك صاحباً .

لا تكثر من إصدار الأوامر إلى زوجتك في منزلها ، إذا كنت
تعلم أنها سيدة صالحة .. لا تقل لها أين الشيء .. أين مكانه .. أين
أجده .. إذا كنت قد وضعت في مكانه المعهود .. لاحظ بعينيك
والزم الصمت حتى تدرك جميل مزاياها ..

يا لها من سعادة حينما تضم يدك إلى يدها .. كثير من الناس
هنا لا يعرفون حال الإنسان ، دون حدوث الشقاق في منزله ..

ليكن قلبك ثابتاً غير متقلب ، ولا تدع امرأة أخرى تسرق
قلبك ..

ضاعف الحبز الذي تعطيه لأهلك ، واحملها كما حملتك ..

لقد كنت عبثاً ثقيلاً عليها ، ولكنها لم تتركه للآخرين يحملونه ..

لقد حملتك تسعة شهور في بطنها ، وظلت مغلولة بك ، وظل
ثديها في فمك مدى ثلاث سنوات ... وبالرغم من أن قاذوراتك
شيء تنقزز منه النفس ، فإن قلبها لم يتقزز .. ولم تقل ماذا أفعل
في هذه القاذورات ..

لقد أدخلتك المدرسة عندما ذهبت لتتعلم الكتابة .. وكانت
تذهب من أجلك كل يوم تحمل إليك الحبز والجمعة من منزلها ..
والآن وأنت شاب ولك زوجة ، تذكر ما فعلته لك أمك .
ولا تجعلها ترفع يديها إلى الله لتشكوك ..

لا تميز بين شخص ذى حيشية ، وشخص فقير ، بل عامل كل
إنسان بحسب عمل يديه ..

لا تحدث ضرراً لمبنى أقامه غيرك ، ولا تبني قبرك من أحجار
الخرائب .

إن أذن الطفل موضوعة فوق ظهره ، وهو يحسن السمع عندما
يضرب .

لا تقضى يوماً واحداً دون عمل . وإلا فيسكون الضرب
نصيبك .

إذا جلست على الأكل مع أشخاص كثيرين ، فلا تقبل كثيراً
على الطعام ، حتى ولو كنت تشتهي ، فإنه من المخجل أن يكون
الإنسان شرها ..

إن كأساً واحدة من الماء تروى الظمأ ، ولا فائدة من الإفراط
في الشراب ، فلن يقوى هذا قلبك .

تذكر أن شبابك هو أئمن كنز تملكه ، وافعل في شبابك ما يعينك

في شيخوختك ، فأنت لا تعرف الشيخوخة ، حيث الفم ساكت
لا يتكلم ، والعينان ضيقتان كلياثنان ، والأذنان مصابتان بالصمم ،
وقلب كثير النسيان ، والأنف مسدود لا يستنشق الهواء . والقيام
والقعود ، كلاهما مؤلم . وطعم الحسن . كطعم القبيح . والعقل
يخطئ في كل الأمور ..

كانت هذه خلاصة لكتاب الوصايا .. وأغلب هذه الوصايا
كانت مكتوبة شعراً ..

وكانت هذه نهاية ما حصلت عليه من مقبرة « حم أيون » ..

هل كان مقدراً لي أن أمضي وحدي لأكتشف بقية السرى ..

إن كل الدلائل كانت تشير إلى أن الضلع الشرقي للهرم هو
مكان الباب السرى ..

والضلع الشرقي هو أصعب الأماكن صعوداً في الهرم . فأحجاره
كبيرة وسليمة وحادة الأركان ، وكل حجر منها كالجبل ..

كنت مستغرقاً في التفكير ، حينما لفت نظري كوم البوسطة
على المكتب ..

لقد أغفلت أمرها طوال هذه الأيام . حتى تراكت هكذا ..

وكانت أغلبها استفسارات من المتحف المصري عن معلومات

ومواصفات خاصة بالقطع الأثرية التي اكتشفناها أخيراً، وعن ظروف كشفها ..

أما الخطاب الأخير فقد كان عليه طابع من الهند ..
وفتحته في قلق ..

كان من أمرى خان ، ينعى فيه وفاة البراهما ، ويسألني عن أحوالي ، ويقول إن البراهما سأل عني قبل أن يموت ..

وتاريخ الخطاب ١٠ ديسمبر وهو تاريخ متفق مع ليلة اكتشاف لمقبرة أمحوتب ، وتلك الليلة التي قضيتها في أحلام مشوشة مختلطة ، وكانت صورة البراهما تختلط على بصورة أمحوتب طوال الليل ..

أمسكت بالخطاب في رهبة ورحت أفكر في البراهما ..

ونخيل إلى أنه يملأ المكان حولي ..

وحاولت أن أستلهمه الصواب ..

إذا كان الإنسان له بقاء بعد الموت ..

وإذا كانت الأرواح المتحابة تتواصل ، فلا شك أنه سوف يلهمني ..

لا يمكن أن يكون الإنسان هو ذلك التركيب المعقد من البروتينات والأملاح المعدنية ولا شيء غير ذلك .

إن هذه المواد البروتينية الحساسة ليست سوى جهاز الكتابة التلقائية في يد روح شفيفة تصور به فكرها وإلهامها ..

كنت أشعر أنه لا بد من المضي في طريق إلى آخره لاكتشف الحقيقة أو أهلك دونها .

ولم يكن أمامي سوى سبيل واحد ..

هو الصعود على طريق الآلام ..

— ولماذا تبحث عن باب سرى ، لتدخل منه إلى ماذا ؟؟

إن داخل الهرم أصبح مكشوفاً ، لا سر فيه ..

المسالك والمسرات وغرفة الملك .. وغرفة الملكة .. والبئر كلها أماكن اكتشف أمرها .. وفي إمكانك أن تدخلها بقرش ومعلك دليل من مصلحة السياحة يشرح لك ما تراه مجاناً ..

وحينما قلت له : إن هذه الممرات والمسالك والغرف مزيفة .. وأن تابوت الملك الفارغ وضعه الفراعنة للتضليل .. عاد يضحك .. ونظر إلى كأنه ينظر إلى مخبول ..

— أنسيت أن الهرم كان نهياً مباحاً لكل مقتحم من أيام الهكسوس إلى أيام محمد على ، حيث فكر التركي الغازى أن يقتلع حجارتها ، لينتجى بها القناطر الخيرية .. وأنه لم يوجد لص هاو ، أو محترف ، خلال الأربعة آلاف سنة ، التي مضت إلا ونقبه بحثاً عن الأسرار الخرافية التي تكلمنى عنها ..

الهرم لم تبق منه إلا خرابة مفتوحة نهبا للصوص ..

الهرم لا سر فيه .. أنت تحلم ..

ولم أشأ أن أقول له أنى أحلم بالفعل ..

ولم أشأ أن أروى له ما رأيته من أمر البراهما ، ونون محب ،

« الصعود على طريق الآلام » تعبير متواضع جداً عن الصعود على الهرم من حافته الشرقية ..

إنها مخاطرة رهيبة مخوفة بالموت فى كل خطوة ..

كل حجر يحتاج إلى ساعة من الاحتياال حوله ، فهو أملس وسامق كالجلبل ، ولا بد أن تنبش فيه الأظافر والخطاطيف حتى تتسلق عليه ..

وفى سن الخمسين يصبح كل شىء صعباً ..

كنت أستريح بعد كل حجر ، وكأنى قطعت عشرة أميال فى الجرى حتى فقدت أنفاسى ..

لقد حاولت أن أحصل من مدير مصلحة الآثار على أمر بتجهيز بعثة لاستكشاف الحافة الشرقية للهرم ، ورفع السقالات اللازمة .. وحينما علم المدير أنى أبحث عن باب سرى للهرم ضحك .. ضحك حتى استلقى على قفاه ..

حتى لا يضعنى فى قبض الكتاف ، ويرسلنى إلى مستشفى
المجاذيب ..

وأخذت المخاطرة كلها على عاتقى وحدى ..

لم أجد دليلاً يقبل أن يصاحبنى فى صعودى عبر هذه الحافة
الخطرة .. ولم يكن منهم من يعرف طريقه لعبور هذه الحافة
بالفعل ..

كنت أول من يرتاد هذا الطريق ..

وكان يعزبنى أنى لن أحتاج لأكثر من الصعود إلى الثلث الأول
من الحافة .. فالعلامة كانت فى مكان ما بالثلث الأول ..

إن آلامى لن تطول ..

وكنت أفحص كل حجر من جميع جوانبه قبل أن أرشق فيه
الخطاف ، باحثاً عن مكان يمكن أن يكون باباً .. وأتخسس الحجر
الصلد وأدق عليه . وأسمع الاهتزازات الصوتية بأذنى ..

كانت كل كتلة حجرية مصمتة من جميع جوانبها .. ولا أثر
يدل على تجويف أو ممر مفرغ بالداخل ..

ورحت أرشق الخطاف وأصعد ..

وفجأة أحسست بالخطاف ينزلق ويهوى .. ورأيت نفسى
أندهور من حالى .. وأرتطم فى أكثر من مكان من جسدى ..
وانطبقت السماء على الأرض .. ورأيت وجه البراهمة ناظراً إلى
شفافى ..

* * *

وحينما فتحت عيني كنت راقداً فى سرير فى مستشفى ..
ذراعى وساقى فى جبائر .. وحول صدرى أربطة عديدة
الاصقة حتى العنق .

وكان على رأسى طبيب ينظر إلى نظرة حائية ويهمس :

لقد نجوت بمعجزة ..

وكنت أحمق فى الجبس والأربطة اللاصقة التى تحيطنى من كل
مكان .. غير مصدق لهذه النجاة المزعومة ..

ويردف الطبيب :

— نعم .. لقد كسرت ذراعك وساقك ، وتحطمت بعض
ضلوعك .. ولكن رأسك لم يصب بسوء ، وعظام حوضك سليمة
.. وهذا أمر خارق بالنسبة لرجل يسقط من أعلى الهرم ويرتطم
مرة بعد مرة بأحجاره .. لقد كانت الملائكة تحملك على يديها ..

وكان المدير يقف بجوار الطبيب ويهتف فى دهشة :

— أنت فقدت عقلك بلا شك .. كيف تفعل هذا الفعل :
ألم أقل لك إن ما تفكر فيه هو الجنون بعينه ..

نعم إنه الجنون ..

وحياتنا كلها جنون ..

نحن نأكل الجوع ، ونشرب الظمأ ، ونحصد الندم .. ونموت
جهلاء ، كما ولدنا ، لانعرف من أين وإلى أين وكيف ..
ولماذا .. كنا .. وكيف أصبحنا .. أليس هذا هو الجنون ..

كنت أفكر وشفقتاى مضمومتان ، وعيناى حائمتان فى الغرفة
البيضاء كأنها الوهم .. وأنفاسى تؤلمنى كأنها مناشير .. ولأقوى
على الكلام ..

وغرس الطبيب حقنة المورفين فى ذراعى .

وهدأت المناشير ..

أصبحت مثل أفاعى لينة تلتف حول صدرى وتضغط عليه فى
حنان مخيف ..

نخيم الظلام على الغرفة ..

وانقطعت خطوات النوبتجى السهران من الممر ..

وانسدل سكون رهيب ..

إن ما قاله الحكيم المصرى القديم فى كتاب وصاياه صحيح ..

حقاً .. لا يوجد شجاع فى ظلام الليل .. ولا يمكن لإنسان
أرب وهو وحيد ..

إنى أشعر بأنى أقرب من ختام قصتى ..

أشعر بالخوف يغتصبنى اغتصاباً ..

أشعر أنى فقدت الشجاعة ، وفقدت الوسيلة إلى أى شىء ..
فهاهما ذراعى مكسورتان ، وأنفاسى هى الأخرى متقطعة
مكسورة ، وقلبى كسير ، وعقلى عاجز ..

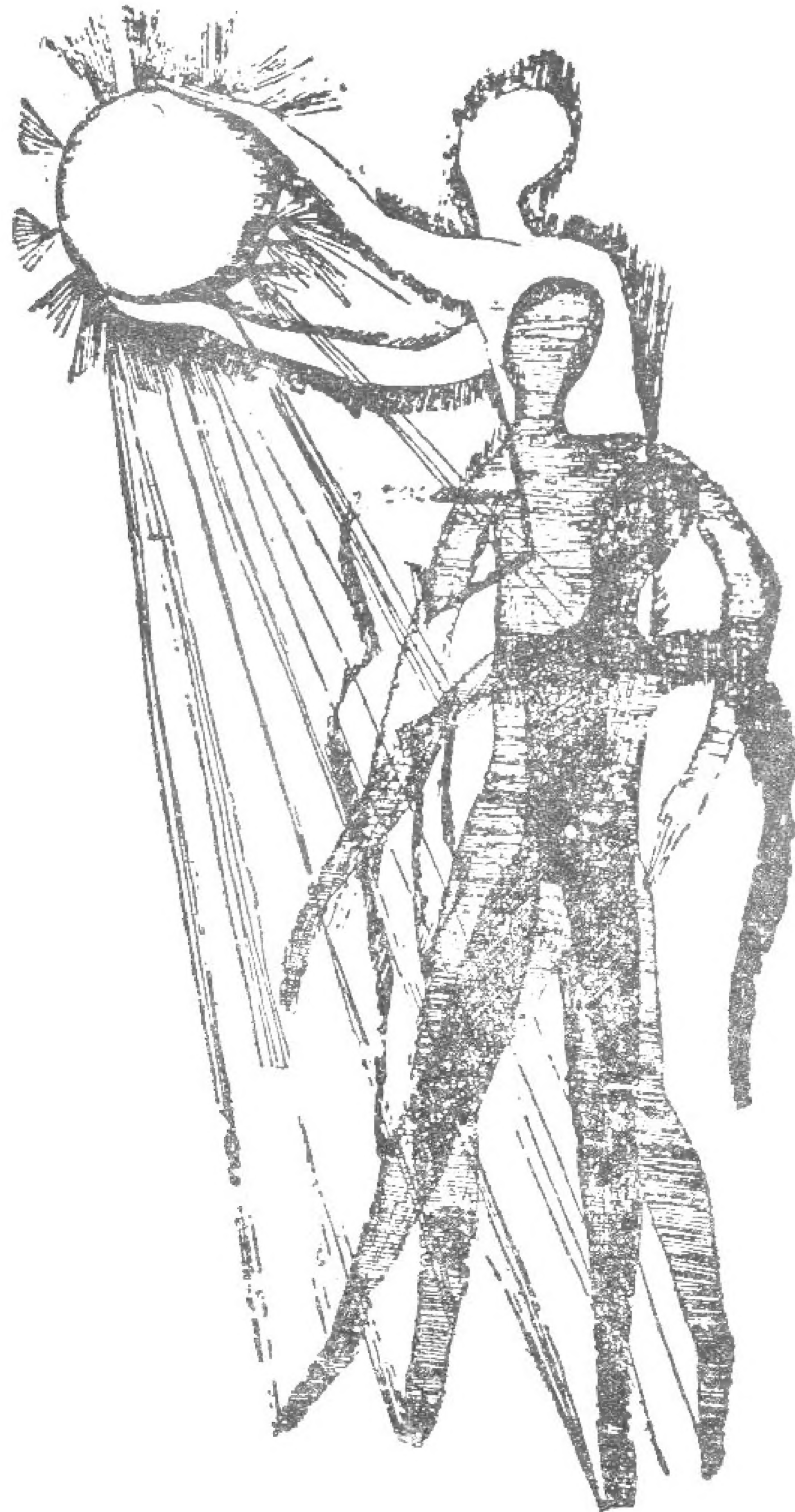
لقد بلغت نهاية القدرة على طريق الآلام ..

وعلى الآخرين أن يكملوا الرحلة مستدلين بالعلامات القليلة
التي وضعتها على الطريق ..

لم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً ..

وكيف يستطيع عقل وحيد ، يتحدى رؤى الواقع الصفيق أن
يفعل أكثر مما فعلت .. ما أنا إلا إشارة على الطريق ..

والطريق طويل بلا نهاية .. ولا بد أن تتكاتف كل العقول



لإضاءته واكتشافه . . إن ما نعلمه قليل . . وما نجهله كثير
لاحد له . .

والإنسان عدو لما يجهل . . وهو لهذا لا يحاول أن يفهم . .
ويغلق كل باب يدخل منه النور بغبائه وتعصبه . .

ولكن الحقيقة أعظم من أن يحتكرها عقل واحد ، أو مذهب
واحد . .

والحياة فوق جميع المذاهب ، لأنها أصل لها جميعاً . .

ولكن التعصب يسد الطريق على كل عقل يحاول أن يجتهد ،
ويحجب عنه المدد الذي يأتيه من ينبوع العظيم الذي لا ينضب
. . من الحياة . .

وحينما تتحكم المذاهب في الحياة . : تتجمد الحياة وتتوقف
وتموت . .

تموت الدهشة . . ويموت الفضول والخيال والابتكار . .

تموت النشوة الخارقة التي يبعثها المجهول ، وتتحول الحياة إلى
قواعد وقوانين يسمونها علماً . . وهي ليست من العلم في
شيء . .

العلم مفتوح الذراعين لكل الحقائق . .

العلم لا ينحجر من مناقشة الوهم والهلديان والخرافة . . لأن
المعرفة غير المحدودة قانه نه ، والتواضع خلقه . .

العقل لا يخشى اللامعقول .

والإرادة لا تعرف المستحيل . .

سوف يرى الكثيرون في بعض ما رويته في قصتي خرافات

لماذا لانحاول أن نفهم معاً ، بدلا من أن نحتقر ما نجهله ،
ونقول عنه خرافات . .

إن الحقيقة أقرب إلينا من أصص الرياحان ، التي نضعها تحت
نوافذنا ، لو حاولنا أن نفهم .. إنها تحت أنوفنا ، ولكننا نستعمل
أنوفنا وفقاً لتقاليد وضعت لنا من قبل . . لماذا لانحاول أن نشم
في حرية ؟

لماذا لاننظر ببراءة الطفل ، لنرى الأشياء في جدتها المدهشة ،
ولنرى الظواهر نابضة ، موحية بآلاف الحقائق . .

* *

ليس لدى ما أضفهُ لهواة الغيب . . فما عندي قد قلته .

وقدرتي بلغت نهايتها

وكل ما أملكه ، هو أن أشير إلى الحقيقة . أشير إليها بذراعي
مكسورتين .

إن حياة تنتهي بالموت ، ولا بقاء بعدها ، هي حياة لاتستحق
أن نحياها .

إنها ليست حياتنا .

إن حياتنا أعظم من أن تنتهي إلى الدود والتراب .

إن القداسة التي تتسم بها الحياة في صميمها ، تنفي عنها هذه
النهاية الهائلة .

هل فكر أحدكم في نفسه . .

هذه النفس التي صيغت من مادة الهديان والأحلام والرؤى .

إن أبجل ما أخرجته لنا حضارة الإنسان ، بدأ حلماً . .

كل ما يقوم على الأرض من مدن وأبراج ومصانع ومعابد
بدأ حلماً وهدياناً ورسوماً وخطوطاً مجردة في الفراغ . . بدأ هباء
في عقل . .

من نبضة خيال ، قام العالم . .

كلمة السر هي هنا . .

في داخل نفوسنا . .

لو أننا فكرنا في نفوسنا ، لروعتنا أكثر من كل صنوف السحر

ولكننا نمضي منطلقين في رحلة العمر ، وعيوننا مقلوبة
إلى الخارج . . لا ننظر إلى وراء . . ولا نتوقف لتساءل . .
ولا نتأمل .

نلتمس الأسرار ، والأسرار فينا . .

ونبحث عن السحر . . ونحن السحر . .

، ننتظر المعجزة ، ونحن المعجزة . .

كيف يمكن أن تصبح هذه النفس حفنة من تراب ، وتنتهي
إلى لا شيء . .

لماذا نموت . . كما أن البراهمة لا يموت . . كما أنه عاش في
كل الأمكنة ، وفي كل الأزمنة . . كما أنه ولد في مختلف الحضارات
كما تولد الكلمات ، ليقول نفس الغايات . . وكأنه كان يعيش
حضارات متعاصرة . . كذلك نحن يتعاصر فينا الماضي والحاضر ،
ونرى سريان الزمن من منظار الأبدية .

لا موت هناك

ليس بعد الحياة ، إلا حياة . .

وليس في الكون المتحرك نقطة سكون . .

الكل يتحرك في دورة أبدية لانهاية لها . .

كما تخرج الفراشات من الشرائق . . كما تخرج السويقات الخضر
من حبات القمح المدفونة أربعة آلاف عام . . كذلك نخرج من
حياة ، إلى حياة ، في استمرار أبدي . .

أقول هذا لمن يجيئون بعدى . .

وأقول لمن يسألني عن متوسط عمر الإنسان ..

إنه اللانهاية ..

لوحة العلاف للفنان

حلمي التوني

اللوحات الداخلية للفنان

إيهاب شاكر